سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم

مطبوعات قاصد الحرمين الشريفين

ح رئاسة الشؤون الدينية بالمسجد الحرام والمسجد النبوي، ١٤٤٦هـ
رئاسة الشؤون الدينية بالمسجد الحرام والمسجد النبوي
سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم./رئاسة الشؤون الدينية بالمسجد الحرام والمسجد النبوي - ط١. .- مكة المكرمة، ١٤٤٦هـ
٢٣٦ص، ١٤×٢١سم
رقم الإيداع: ١٤٤٦/١١٠٦٤
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٥٠٦-٤٢-٤

مطبوعات قاصد الحرمين الشريفين

الطبعة الأولى
١٤٤٦هـ/٢٠٢٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الرئاسة

الحمدُ للهِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ رسول اللهِ، وعلىٰ آلِهِ وصحبِهِ ومَنْ والاه، أمَّا بعدُ:

فقدْ جعلَ اللهُ تعالىٰ البيتَ الحرامَ قِبلةً تجتمعُ صَوْبَها قلوبُ المسلمينَ وأجسادُهُمْ، وهدًىٰ للعالمينَ، وحَرمًا آمنًا، يتحقَّقُ بتعظيمِهِ صلاحُ النَّاسِ في مَعاشِهِمْ، ومَعادِهِمْ.

وفي كلِّ عامٍ يَفِدُ إلىٰ البلدِ الحرامِ ملايينُ المُسلمينَ، يحملونَ معهُمْ آمالَهُمْ، ومَشاعرَهُمْ، وأمنيَّاتِهِمْ، وكذلكَ أسئلتَهُمْ عمَّا يجبُ عليهِمْ تُجاهَ دينِهِمْ، وما أشكلَ عليهِمْ في عباداتِهِمْ، ومُعاملاتِهِمْ.

ومِنْ هذا المُنطلَقِ، كانَ تعظيمُ المَسجدِ الحرامِ، وإكرامُ أهلِهِ والوافدينَ إليهِ واجبًا، ومَسؤوليةً عظيمةً، وقدْ تشرَّفتْ «**رئاسةُ الشؤون الدينية بالمسجدِ الحرامِ، والمسجدِ النَّبويِّ**» بحملها، والقيامِ بها علىٰ أكمل وجهٍ.

فهذا مشروعُ «مطبوعاتِ قاصد الحرمين الشريفين» تعبيرٌ صادقٌ عمَّا يُكنُّهُ أهلُ هذهِ البلادِ المُباركةِ، والقائمونَ علىٰ

خدمةِ البيتِ الحَرامِ مِنْ مَشاعِرَ تُجاهَ وفدِ الرَّحمنِ، وتقديمٌ لهديَّةٍ ثمينةٍ يحملُها الزَّائرُ معَهُ، ويفخرُ بها حالَ عودتِهِ إلىٰ بلدِهِ.

وإنَّ «**رئاسةُ الشؤون الدينية بالمسجدِ الحرامِ، والمسجدِ النَّبويِّ**» -إذ تضعُ بينَ يدَيْ إخوانِنا ضيوفِ الرَّحمنِ هذا الكتيِّبَ الإرشاديَّ، الَّذي يتناول أحداثَ حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ولادته -بل قبل ولادته ممَّا يتعلق به- إلىٰ وفاته، ويسردها سردًا ماتعًا مُشبَعًا، ويتناولها بشيء من التفصيل الذي يمتِّع القارئ ويعرفه بحياة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأحداثها، كالبَعثة، وبداية الدعوة والجهر بها، وبيعتَي العقبة، والهجرة إلىٰ المدينة، وغزوات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وغير ذلك من الأحداث العظام، مرتبةً من مولده حتىٰ وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حسب السنين- لتأمُّلُ مِنْ إخوانِنا المُسلمينَ أن يتفقَّهوا في دينِهِمْ، ويشكروا مَولاهُمُ عَزَّوَجَلَّ الَّذي يسَّرَ لهُمْ زيارةَ بيتِهِ المُعظَّمِ، وأداءَ مَناسكِهِمْ بكلِّ طمأنينةٍ ويُسرٍ.

تقبَّلَ اللهُ منَّا، ومنكُمْ صالحَ الأعمال، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، وصلَّىٰ اللهُ علىٰ نبيِّنا محمَّدٍ، وعلىٰ آلِهِ، وصحبِهِ وسلَّم.

رئاسة الشؤون الدينية بالمسجد الحرام والمسجد النبوي

نسبُ النَّبيِّ ﷺ

محمَّد بن عبد الله بن عبد المُطَّلب بن هاشم بن عبد مَناف ابن قُصيِّ بن كِلاب بن مُرَّة بن كَعب بن لُؤَيِّ بن غالب بن فِهر ابن مالك بن النَّضْر بن كِنانةَ بن خُزيمة بن مُدْرِكَة بن إلياس بن مُضَر بن نِزار بن مَعْد بن عدنانَ، وإلىٰ هنا معلوم الصِّحَّة، وما فوقَ عدنانَ مُختلَفٌ فيه.

ولا خلافَ أنَّ عدنانَ من ولد إسماعيلَ، وإسماعيلُ هو الذَّبيح علىٰ القول الصَّواب، والقول بأنَّه إسحاق باطلٌ.

ولا خلاف أنَّه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وُلد بمكَّة عام الفيل، وكانت وقعة الفيل تَقْدِمةً قدَّمها الله لنبيِّه وبيته، وإلَّا فأهل الفيل نصارىٰ أهل كتاب، دينهم خيرٌ من دين أهل مكَّة؛ لأنَّ أهل مكَّة عُبَّاد أوثانٍ، فنصرهم الله نصرًا لا صُنع للبشر فيه؛ تَقْدِمةً للنَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وتعظيمًا للبلد الحرام.

قصَّة الفيل

كان سبب قصَّة أصحاب الفيل: أنَّ أبرهةَ كان عاملًا للنَّجاشيِّ ملك الحبشة علىٰ اليمن، فرأىٰ النَّاس يتجهَّزون أيَّام الموسم إلىٰ مكَّة -شرَّفها الله-، فبنىٰ كنيسةً بصنعاء.

وكتب إلىٰ النَّجاشيِّ: «إنِّي بنيتُ لك كنيسةً لم يُبْنَ مثلُها، ولستُ مُنتهيًا حتَّىٰ أصرف إليها حجَّ العرب».

فسمع به رجلٌ من بني كِنانة، فدخلها ليلًا، فلطَّخ قبلتها بالعَذِرَة.

فقال أبرهة: مَن الَّذي اجترأ علىٰ هذا؟

قيل: رجلٌ من أهل ذلك البيت -أي: الكعبة- سمع بالَّذي قلتَ.

فحلف أبرهة ليسيرَنَّ إلىٰ الكعبة حتَّىٰ يهدمها، وكتب إلىٰ النَّجاشيِّ يُخبره بذلك، فسأله أن يبعث إليه بفيله، وكان له فيلٌ يُقال له: محمودٌ، لم يُرَ مثلُه عِظَمًا وجسمًا وقوَّةً، فبعث به إليه.

فخرج أبرهة سائرًا إلىٰ مكَّة، فسمعت العرب بذلك فأعظموه، ورأوا جهاده ودفاعهم عن الكعبة حقًّا عليهم.

فخرج ملكٌ من ملوك اليمن، يُقال له: ذو نفرٍ، فقاتله، فهزمه أبرهة وأخذه أسيرًا.

فسار حتَّىٰ إذا دنا من بلادِ خَثْعَم خرج إليه نُفَيْلُ بن حبيبٍ الخثعميُّ ومَن اجتمع إليه من قبائل العرب، فقاتلوه فهزمهم أبرهة، فأخذ نُفيلًا، فقال له: «أيُّها الملك، إنَّني دليلك بأرض العرب، وهاتان يداي علىٰ قومي بالسَّمع والطَّاعة، فاسْتَبْقِنِي خيرًا لك»، فاستبقاه، وخرج معَه يدلُّه علىٰ الطَّريق.

فلمَّا مرَّ بالطَّائف خرج إليه مسعود بن مُعَتِّبٍ في رجالٍ من ثقيفٍ، فقال له: «أيُّها الملك، نحن عبيدك، ونحن نبعث معَك مَن يدلُّك»، فبعثوا معه بأبي رِغَالٍ مولًىٰ لهم، فخرج حتَّىٰ إذا كان بالمُغَمَّس -موضع قرب مكة في طريق الطائف- مات أبو رغالٍ، وهو الَّذي يُرجَم قبرُه.

وبعث أبرهة رجلًا من الحبشة علىٰ مُقدِّمة خيله، وأمر بالغارة علىٰ نَعَم النَّاس، فجمع إليه أموال الحَرَم، وأصاب لعبد المطَّلب مائتي بعيرٍ.

ثمَّ بعث رجلًا من حِمْير إلىٰ أهل مكَّة، فقال: «أَبلغ شريفَها أنَّني لم آتِ لقتالٍ، بل جئتُ لأهدم البيت».

فانطلق، فقال لعبد المطَّلب ذلك، فقال عبد المطَّلب: «ما لنا به يدان -أي: ليس لنا قدرة علىٰ قتاله-، سنُخلِّي بينَه وبينَ ما جاء له، فإنَّ هذا بيت الله وبيت خليله إبراهيم، فإنْ يمنعه فهو بيته وحَرَمه».

قال: فانطلق معي إلىٰ الملك، فانطلق معَه عبد المطَّلب ومعَه بعض بنيه، حتَّىٰ أتىٰ العسكر، فسأل عبد المطَّلب عن ذي نفرٍ وكان صديقًا له، فأتاه، فقال: «يا ذا نفرٍ، هل عندَك غَناءٌ فيما نزل بنا؟» فقال: «ما غناء رجلٍ أسيرٍ لا يأمن أن يُقتَل بُكرةً أو عشيًّا، ولكن سأبعث إلىٰ أُنيسٍ سائس الفيل؛ فإنَّه لي صديقٌ، فأسأله أن يُعظِّم خطرَك عند الملك».

فأرسل إليه، فقال أُنيسٌ لأبرهة: «إنَّ هذا سيِّد قريشٍ يستأذن عليك، وقد جاء غير ناصبٍ لك، ولا مخالفٍ لأمرك، وأنا أُحبُّ أن تأذن له».

وكان عبد المطَّلب رجلًا جسيمًا وسيمًا، فلمَّا رآه أبرهة أعظمه وأكرمه، وكره أن يجلس معَه علىٰ سريره وأن يجلس تحتَه، فهبط إلىٰ البساط، فدعاه فأجلسه معَه.

فطلب منه أن يردَّ عليه مائتي البعير الَّتي أصابها من ماله.

فقال أبرهة لترجمانه، قل له: «إنَّك كنتَ أعجبتني حينَ رأيتُك، ولقد زهدتُ فيك». قال: لمَ؟ قال: «جئتُ إلىٰ بيتٍ هو دينُك ودين آبائك وشرفكم وعصمتكم لأهدمه، فلم تُكلِّمني فيه، وتُكلِّمني في مائتي بعيرٍ!».

قال: «أنا ربُّ الإبل، والبيت له ربٌّ يمنعه منك».

فقال: ما كان ليمنعه منِّي. قال: فأنتَ وذاك!

فأمر بإبله فرُدَّت عليه، ثمَّ خرج وأخبر قريشًا الخبر، وأمرهم أن يتفرَّقوا في الشِّعاب، ويتحرَّزوا في رؤوس الجبال؛ خوفًا عليهم من مَعَرَّة الجيش، ففعلوا، وأتىٰ عبدُ المطَّلب البيتَ، فأخذ بحلقة الباب، وجعل يقول:

يا ربِّ لا أرجو لهم سِـــواكا ... يا ربِّ فامنع منهـــمُ حِماكا
إنَّ عـــدوَّ البيت مَـــن عاداكا ... فامنعهـــمُ أن يُخْرِبـــوا قراكا

ثمَّ توجَّه في بعض تلك الوجوه معَ قومه، وأصبح أبرهة بالمغمَّس قد تهيَّأ للدُّخول وعبَّأ جيشَه وهيَّأ فيله، فأقبل نُفيلٌ إلىٰ الفيل فأخذ بأُذُنه، فقال: «ابرك محمود؛ فإنَّك في بلد الله الحرام». فبرك الفيل، فبعثوه فأبىٰ، فوجَّهوه إلىٰ اليمن فقام يُهَرْول، ووجَّهوه إلىٰ الشَّام ففعل مثل ذلك، ووجَّهوه إلىٰ المشرق ففعل ذلك، فصرفوه إلىٰ الحَرَم فبرك.

وخرج نُفيلٌ يشتدُّ حتَّىٰ صعِد الجبل، فأرسل الله طيرًا من قِبَل البحر، معَ كلِّ طائرٍ ثلاثة أحجارٍ: حجران في رجلَيْه، وحجرًا في منقاره.

فلمَّا غَشِيَتِ القومَ أرسلتها عليهم، فلم تُصب تلك الحجارة أحدًا إلَّا هلك، وليس كلَّ القوم أصابت.

فخرج البقيَّة هاربين يسألون عن نُفيلٍ ليدلَّهم علىٰ الطَّريق إلىٰ اليمن، فماج بعضهم في بعضٍ يتساقطون بكلِّ طريقٍ، ويهلكون علىٰ كلِّ مَنْهَلٍ -المنهل من المياه: كل ما يطؤه الطريق-.

وبعث الله علىٰ أبرهة داءً في جسده، فجعلت تساقط أناملُه، حتَّىٰ انتهىٰ إلىٰ صنعاء وهو مثل الفَرْخ، وما مات حتَّىٰ انصدع صدرُه عن قلبه، ثمَّ هلك.

أحوال رسول الله ﷺ

من وقت حمله، وحتَّىٰ كفالة جدِّه عبد المطَّلب:

تُوفِّي أبوه ﷺ وهو حملٌ.

وعندَما وُلد ﷺ أرضعته أمُّه أيَّامًا، وكانت قليلةَ اللَّبن، ثمَّ أرضعته ثُوَيْبَة مولاةُ أبي لهبٍ.

ثمَّ أرضعته حَليمَة السَّعديَّة في بادية بني سَعد بن بَكرٍ، وأقام عندَها رسول الله سنتين حتَّىٰ فطمته، ثمَّ إنَّها طلبت من آمِنَة بنت وَهْبٍ أن يَبقىٰ عندَها رسول الله ﷺ، وذلك لمَّا رأت البركات الَّتي ظهرت في غنمها، وأرضها.

وبينَما رسول الله ﷺ يلعب معَ الغلمان في بادية بني سعدٍ، إذ جاءه جبريل عليه السلام ومعَه ملكٌ آخَر، فشقَّ عن صدره الشَّريف، فرجع رسول الله ﷺ بعدَ حادثة شقِّ الصَّدر إلىٰ أُمِّه. [صحيح مسلم (١٦٢)].

ولمَّا بلغ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ستَّ سنين، ذهبت به أمُّه تزور أخوال جدِّه عبد المطَّلب في يثرب.

وفي طريق عودتهم إلىٰ مكَّة ماتت أمُّه بينَ مكَّة والمدينة، بمنطقة يُقال لها: الأَبْوَاء، ولم يستكمل إذ ذاك ستَّ سنين.

فكَفلَه جدُّه عبد المطَّلب، ورقَّ عليه رِقَّةً لم يرقَّها علىٰ أولاده، فكان لا يُفارقه، وما كان أحدٌ من ولده يجلس علىٰ فراشه إجلالًا له إلَّا رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وقدم مكَّة قومٌ من بني مُدْلِجٍ من القَافَة، فلمَّا نظروا إليه قالوا لجدِّه: احتفظ به، فلم نجد قَدَمًا أشبه بالقدم التي في المقام من قدمه، فقال لأبي طالبٍ: اسمع ما يقول هؤلاء، واحتفظ به.

وتُوفِّي جدُّه في السَّنة الثَّامنة من مولده، وأوصىٰ به إلىٰ أبي طالبٍ.

عبد المطَّلب جدُّ رسول الله ﷺ

كان عبد المطَّلب من سادات قُريشٍ، مُحافظًا علىٰ العهود، مُتخلِّقًا بمكارم الأخلاق، يحبُّ المساكين، ويقوم في خدمة الحجيج، ويُطعِمُ في الأَزَمَات، ويقمع الظَّالمين، وكان يُطعِم حتَّىٰ الوحوش والطَّير في رؤوس الجبال.

وكان له أولادٌ:

أكبرهم: الحارث، تُوفِّي في حياة أبيه. وأسلم من أولاد الحارث عُبَيدة، وربيعة، وأبو سفيان، وعبد الله.

ومنهم: الزُّبَيْر بن عبد المطَّلب، وكان رئيس بني هاشمٍ وبني المطَّلب في حرب الفِجار، شريفًا شاعرًا، ولم يُدرك الإسلام. وأسلم من أولاده: عبد الله، وضُباعة، وحَجْلٌ، وصفيَّة، وعاتكة.

-الفِجار بمعنىٰ (المفاجرة)، كـ(القتال) و(المقاتلة)، وذلك أنه كان قتالًا في الشهر الحرام، فسُمِّي الفِجار، وكانت للعرب فجارات أربع-.

ومنهم: حمزة بن عبد المطَّلب، وقد أسلم.

ومنهم: العبَّاس، وقد أسلم.

ومنهم: أبو لهبٍ، مات عقيب بدرٍ.

ومن بناته:

أَرْوَىٰ، تزوجها كُرْز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمسٍ، فولدت له: عامرًا، وأَرْوَىٰ، فتزوَّج أروىٰ عفَّان بن أبي العاص بن أُميَّة، فولدت له: عثمان.

ومنهنَّ: بَرَّة بنت عبد المطَّلب، أمُّ أبي سَلَمة بن عبد الأسد المخزوميِّ.

ومنهنَّ: عاتكة، أمُّ عبد الله بن أبي أُميَّة، وهي صاحبة المنام قبلَ يوم بدرٍ، واختُلف في إسلامها.

ومنهنَّ: صفيَّة، أمُّ الزُّبير بن العوَّام، أسلمت وهاجرت.

ومنهنَّ: أُميمة، أمُّ آل جحشٍ: عبد الله، وأبي أحمد، وعبيد الله، وزينب، وحَمْنة.

وأمَّا أمُّ عبد المطَّلب: فهي سَلمىٰ بنت زيدٍ، من بني النَّجَّار، تزوَّجها أبوه هاشم بن عبد منافٍ، فخرج إلىٰ الشَّام -وهي عندَ أهلها، وقد حملت بعبد المطَّلب- فمات بغزَّة.

وولدت امرأته سلمىٰ عبد المطلب، وسمَّته: شيبة الحمد.

فأقام في أخواله مُكرَّمًا، فبينَما هو يُناضل الصِّبيان، فيقول: أنا ابن هاشمٍ، سمعه رجلٌ من قريشٍ، فقال لعمِّه المطَّلب: إنِّي مررتُ بدورِ بني قَيْلَة، فرأيتُ غلامًا يعتزي -أي: ينتسب- إلىٰ أخيك، وما ينبغي ترك مثله في الغُربة!

فرحل إلىٰ المدينة في طلبه، فسأل أمَّه أن ترسل به معَه، فامتنعت. فقال لها: «إنَّما يمضي إلىٰ ملك أبيه، وإلىٰ حرم الله». فأذنت له، فقدم به مكَّة، فقال النَّاس: هذا عبد المطَّلب. فقال: ويحكم! إنَّما هو ابن أخي هاشمٍ.

فأقام عندَه حتَّىٰ ترعرع -أي: تَحَرَّكَ ونشأَ-، فسلَّم إليه ملك هاشمٍ: من أمر البيت، والرِّفادة، والسِّقاية، وأمر الحجيج، وغير ذلك.

وكان عمُّه المطَّلب شريفًا مطاعًا جوادًا، وكانت قريشٌ تُسمِّيه الفيَّاض لسخائه، وهو الَّذي عقد الحلف بينَ قريشٍ والنَّجاشيِّ، وله من الولد: الحارث، ومخرمة، وعبَّادٌ، وأُنيسٌ، وأبو عمر، وأبو رهمٍ، وغيرهم.

ولمَّا مات المطَّلب وَثبَ أخوه نوفل بن عبد منافٍ علىٰ

أرْكَاح شيبة -وهي الفضاء بين البيوت- فغصبه إيَّاها، فسأل رجالًا من قريشٍ النُّصرة علىٰ عمِّه، فقالوا: لا ندخل بينَك وبينَ عمِّك.

فكتب إلىٰ أخواله من بني النَّجَّار، فلمَّا وقف خاله أبو سعد بن عديِّ بن النَّجَّار علىٰ كتابه بكىٰ، وسار من المدينة في ثمانين راكبًا، حتَّىٰ قدم مكَّة، فنزل بالأَبْطَح فتلقَّاه عبد المطَّلب وقال: المنزل يا خال. فقال: لا والله، حتَّىٰ ألقىٰ نوفلًا. فقال: تركته بالحِجر جالسًا في مشايخ قومه.

فأقبل أبو سعدٍ حتَّىٰ وقف عليهم، فقام نوفلٌ قائمًا، فقال: يا أبا سعدٍ، أنعم صباحًا. فقال: لا أنعم الله لك صباحًا، وسَلَّ سيفه، وقال: وربِّ هذا البيت، لَئِن لم تردَّ علىٰ ابن أُختي أركاحَه لأُمكنن منك هذا السَّيف.

فقال: رددتها عليه. فأشهد عليه مشايخ قريشٍ، ثمَّ نزل علىٰ شيبة فأقام عندَه ثلاثًا، ثمَّ اعتمر ورجع إلىٰ المدينة.

فلمَّا جرىٰ ذلك حالف نوفلٌ بني عبد شمس بن عبد منافٍ

علىٰ بني هاشمٍ، وحالفت بنو هاشمٍ خُزاعة علىٰ بني عبد شمسٍ ونوفلٍ، فكان ذلك سببًا لفتح مكَّة، كما سيأتي.

فلمَّا رأت خزاعة نصر بني النَّجَّار لعبد المطَّلب، قالوا: نحن ولدناه كما ولدتموه، فنحن أحقُّ بنصره، وذلك أنَّ أمَّ عبد منافٍ منهم، فدخلوا دار النَّدوة وتحالفوا وكتبوا بينَهم كتابًا.

عبد الله والد رسول الله ﷺ

عبد الله والد النَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو الذَّبيح:

وسبب ذلك: أنَّ عبد المطَّلب أُمر في المنام بحفر زمزم، ووُصِف له موضعها، وكانت جُرْهم قد غلبت آلَ إسماعيل علىٰ مكَّة، وملكوها زمانًا طويلًا، ثمَّ أفسدوا في حرم الله.

فوقع بينَهم وبين خُزاعة حربٌ -وخزاعة من قبائل اليمن، من أهل سبأٍ- ولم يدخل بينَهم بنو إسماعيل، فغلبتهم خزاعة، ونفت جُرْهُمًا من مكَّة.

وكانت جرهمٌ قد دفنت الحَجر الأسود، والمقام، وبئر زمزم.

وظهر بعدَ ذلك قُصيُّ بن كلابٍ علىٰ مكَّة، ورجع إليه ميراث قريشٍ، فأنزل بعضَهم داخل مكَّة -وهم قريش الأباطح- وبعضَهم خارجها -وهم قريش الظَّواهر-، فبقيت زمزم مدفونةً إلىٰ عصر عبد المطَّلب.

فرأىٰ في المنام موضعها، فقام يحفر، فوجد فيها سيوفًا مدفونةً، وحُليًّا، وغزالًا من ذهبٍ مُشَنَّفًا بالدُّرِّ -أي: في أُذنه الدُّرُّ-، فعلَّقه عبد المطَّلب علىٰ الكعبة، وليس معَ عبد المطَّلب إلَّا ولده الحارث.

فنازعته قريشٌ، وقالوا له: أشركنا، فقال: ما أنا بفاعلٍ، هذا أمر خُصِصْتُ به، فاجعلوا بيني وبينكم مَن شئتم أُحاكِمُكم إليه.

فنذر حينَئذٍ عبد المطَّلب: لئن آتاه الله عشرة أولادٍ وبلغوا أن يمنعوه، لينحرنَّ أحدَهم عندَ الكعبة.

فلمَّا تمُّوا عشرةً، وعرف أنَّهم يمنعونه، أخبرهم بنذره فأطاعوه، وكتب كلٌّ منهم اسمَه في قِدْحٍ، وأعطَوا القِدَاح قَيِّم هُبَلَ -وكان الَّذي يُدير القِداح-، فخرج القِدْحُ علىٰ عبد الله.

وأخذ عبد المطَّلب المُدْيَة -أي: السكين- ليذبحه، فقامت إليه قريشٌ من ناديها فمنعوه، فقال: كيف أصنع بنذري؟ فأشاروا عليه أن ينحر مكانَه عشرًا من الإبل.

فأقرع بينَ عبد الله والإبل، فوقعت القرعة عليه، فاغتمَّ عبد المطَّلب، ثمَّ لم يزل يزيد عشرًا عشرًا، ولا تقع القرعة إلَّا

عليه، إلىٰ أن بلغ مائةً، فوقعت القرعة علىٰ الإبل، فنُحرت عنه، فجرت السُّنَّة في الدِّية مائةً من الإبل.

أبو طالبٍ عمُّ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ:

وأمَّا أبو طالبٍ، فهو الَّذي تولَّىٰ تربية رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من بعد جدِّه، ورقَّ عليه رِقَّةً شديدةً، وكان يُقدِّمه علىٰ أولاده.

قام أبو طالبٍ يحوطه، ويقوم بأمره، ويذبُّ -أي: يُدافع- عنه، ويلطف به، من سنة ثمانٍ من مولد رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلىٰ السَّنة العاشرة من النُّبوَّة، أي: ثلاثًا وأربعين سنةً.

وكان يُقرُّ بنبوَّة النَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وله في ذلك أشعارٌ، منها:

ألا أبلغا عنِّي علىٰ ذاتِ بيننا
لُؤَيًّا وخُصَّا من لؤيٍّ بني كعبِ

بأنَّا وجدنا في الكتاب محمَّدًا
نبيًّا كموسىٰ، خُطَّ في أوَّل الكتْبِ

ولكنَّه أبىٰ أن يدين بذلك خشية العار، ولمَّا حضرته الوفاة دخل عليه رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ -وعندَه أبو جهل وعبد الله بن أبي أُميَّة- فقال: «**يا عمِّ، قل: لا إله إلَّا الله، كلمةً أحاجُّ لك**

بها عند الله»، فقالا له: أترغبُ عن ملَّة عبد المطَّلب؟ فلم يزل ﷺ يردِّدها عليه، وهما يردِّدان عليه، حتَّىٰ كان آخر كلمةٍ قالها: «هو علىٰ ملَّة عبد المطَّلب»، فقال رسول الله ﷺ: «**لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْه عنك**»، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، ونزل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]. [رواه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤)].

وخلَّفَ أبو طالبٍ أربعة ذكورٍ وابنتين:

فالذُّكور: طالبٌ، وعَقيلٌ، وجَعفرٌ، وعليٌّ، وبينَ كلِّ واحدٍ عشر سنين.

فأكبرهم: طالبٌ، ثمَّ عَقيلٌ، ثمَّ جعفرٌ، ثمَّ عليٌّ.

فأمَّا طالبٌ، فأخرجه المشركون يوم بدرٍ كُرْهًا، فلمَّا انهزم الكفَّار طُلبَ، فلم يوجد في القتلىٰ ولا في الأَسْرىٰ، ولا رجع إلىٰ مكَّة، وليس له عَقِبٌ.

وأمَّا عَقيلٌ، فأُسِرَ ذلكَ اليوم، ولم يكُن له مالٌ، ففداه عمُّه العبَّاس، ثمَّ رجع إلىٰ مكَّة فأقام بها إلىٰ السَّنة الثَّامنة، ثمَّ هاجر إلىٰ المدينة، فشهد مُؤتةَ معَ أخيه جعفرٍ.

واستمرَّت كفالة أبي طالبٍ لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فلمَّا بلغ اثنتي عشرة سنةً -وقيل: تسعًا- خرج به أبو طالبٍ إلىٰ الشَّام في تجارةٍ، فرآه بَحيرىٰ الرَّاهب، وأمر بَحيرىٰ عمَّه ألَّا يقدم به إلىٰ الشَّام؛ خوفًا عليه من اليهود، فبعثه عمُّه معَ بعض غلمانه إلىٰ المدينة.

خروجه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلىٰ الشَّام وزواجه خديجة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا

لمَّا بلغ رسولُ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خمسًا وعشرين سنة، خرج إلىٰ الشَّام في تجارةٍ لخديجة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، ومعَه مَيْسَرة غلامها، فوصل بُصْرَىٰ -وهي مدينةٌ بالشَّام-.

ثمَّ رجع فتزوَّج عقب رجوعه خديجة بنت خويلدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، وهي أوَّل امرأةٍ تزوَّجها، وأوَّل امرأةٍ ماتت من نسائه، ولم ينكح عليها غيرها، ورُزق منها بجميع أبنائه وبناته -زينب، ورقيَّة، وأمِّ، كُلثُومٍ، وفاطمة، والقاسم- ما عدا إبراهيم؛ فإنَّه كان من ماريةَ القِبطيَّة.

وأمره جبريل أن يقرأ عليها السَّلام من ربِّها، ويُبشِّرَها ببيتٍ في الجنَّة من قَصَبٍ -أي: لؤلؤ مُجَوَّف-.

تَحنُّثه ﷺ في غار حِراء

ثمَّ حُبِّب إليه الخلاء والتَّعبُّد لربِّه، فكان يخلو بغار حِراء يتعبَّد فيه.

وبُغِّضت إليه الأوثانُ ودينُ قومه، فلم يكُن شيءٌ أبغضَ إليه من ذلك.

وأنبته الله نباتًا حسنًا، حتَّىٰ كان أفضل قومه مُروءةً، وأحسنهم خُلقًا، وأعزَّهم جِوارًا، وأعظمهم حِلمًا، وأصدقهم حديثًا، وأحفظهم للأمانة، حتَّىٰ سمَّاه قومه: «الأمين»؛ لما جمع الله فيه من الأحوال الصَّالحة، والخصال الكريمة المرضيَّة.

بناء الكعبة

ولمَّا بلغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خمسًا وثلاثين سنةً، جمعت قريشٌ لبنيان الكعبة، وكانوا يهمُّون بذلك ليسقِّفوها، ويهابون هدمها، وإنَّما كانت رَضْمًا -أي: صُخُورًا بعضها علىٰ بعض- فوق القامة، فأرادوا رفعها وتسقيفها؛ والسَّبب: أنَّ قومًا سرقوا كنز الكعبة، وكان في بئرٍ في جوف الكعبة.

وكان البحر قد رمىٰ سفينةً إلىٰ جُدَّة لرجلٍ من تجَّار الرُّوم فتحطَّمت، فأخذوا خشبها فأعدُّوه لسقفها، وقد كان بمكَّة رجلٌ قبطيٌّ نجَّارٌ، فهيَّأ لهم بعض ما كان يصلحها.

فلمَّا أجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها، قام أبو وهب بن عمرو ابن عائذٍ المخزوميُّ فتناول من الكعبة حَجرًا، فوثب الحجر من يده حتَّىٰ رجع إلىٰ موضعه، فقال: يا معشر قريشٍ، لا تُدخِلوا في بُنيانها من كسبكم إلَّا طيِّبًا، لا يدخل فيها مَهْر بَغِيٍ، ولا بيع ربًا، ولا مظلمة أحدٍ من النَّاس.

ثمَّ إنَّ قُريشًا تجزَّأت الكعبة:

فكان شِقُّ الباب: لبني عبد منافٍ وزُهرة.

وما بينَ الرُّكن الأسود واليماني: لبني مخزومٍ، وقبائل من قريشٍ انضافت إليهم.

وكان ظهر الكعبة: لبني جُمَحٍ وبني سَهْم.

وكان شقُّ الحِجْر -وهو الحطيم-: لبني عبد الدَّار، ولبني أسد بن عبد العُزَّىٰ، ولبني عديٍّ.

ثمَّ إنَّ النَّاس هابوا هدمها، فقال الوليد بن المُغيرة: أنا أبدؤكم في هدمها، فأخذ المِعْول، ثمَّ قام عليها، وهو يقول: «اللَّهمَّ لم نَرِغ، اللَّهمَّ إنَّا لا نُريد إلَّا الخير»، ثمَّ هدم من ناحية الرُّكنين، فتربَّص النَّاس تلك اللَّيلة، وقالوا: إن أُصيب لم نهدم منها شيئًا ورددناها كما كانت، وإلَّا فقد رضي الله ما صنعنا، فأصبح الوليد من ليلته غاديًا علىٰ عمله، فهدم وهدم النَّاس معَه، حتَّىٰ انتهىٰ الهدم بهم إلىٰ الأساس -أساس إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ-.

ثمَّ إنَّ القبائل من قريشٍ جمعت الحجارة لبنائها، كلُّ قبيلةٍ تجمع علىٰ حدةٍ، ثمَّ بنوها، حتَّىٰ بلغ البنيان موضع الحجَر

الأسود، فاختصموا فيه، كلُّ قبيلةٍ تريد أن ترفعه إلىٰ موضعه، حتَّىٰ تحاوروا وتحالفوا وأعدُّوا للقتال، فمكثت قريشٌ علىٰ ذلك أربع ليالٍ أو خمسًا.

ثمَّ إنَّهم اجتمعوا في المسجد وتشاوروا، فقال أبو أُميَّة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزومٍ المخزوميُّ -وكان يومَئذٍ أَسَنَّ قريشٍ كلِّهم-: «اجعلوا بينكم أوَّلَ مَن يدخل من باب المسجد». ففعلوا، فكان أوَّلَ مَن دخل رسولُ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فلمَّا رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا به، هذا محمَّدٌ.

فلمَّا انتهىٰ إليهم أخبروه الخبر، فقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: هَلُمَّ إليَّ بثوبٍ، فأُتِيَ به، فأخذ الرُّكن فوضعه فيه بيده، ثمَّ قال: «**لتأخذ كلُّ قبيلةٍ بناحيةٍ من الثَّوب، ثمَّ ارفعوا جميعًا**»، ففعلوا، حتَّىٰ إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ثمَّ بنىٰ عليه.

وكان رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ينقُل معَهم الحجارة، وكانوا يرفعون أُزرَهم علىٰ عواتقهم، ففعل ذلك رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَلُبِط به -أي: طاح علىٰ وجهه- ونُودي: «استر عورتك»، فما رُئيت له عورةٌ بعدَ ذلك.

فلمَّا بلغوا خمسةَ عشرَ ذراعًا سقَّفوه علىٰ ستَّة أعمدةٍ، وكان البيت يُكْسَىٰ القباطيَّ -ثيابًا بيضًا من كَتَّانٍ تُعمَل بمصر-، ثم كُسيَ البُرُود، وأوَّل من كساه الدِّيباج: الحجَّاج بن يوسف.

وأخرجت قُريشٌ الحِجْر لقلَّة نفقتهم، ورفعوا بابها عن الأرض؛ لئلَّا يدخلها إلَّا من أرادوا.

فلمَّا بلغ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أربعين سنةً، بعثه الله بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلىٰ الله بإذنه وسراجًا منيرًا.

بعض ما كان عليه أهل الجاهليَّة

قال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: في قوله تعالىٰ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣]: «كان النَّاس علىٰ الإسلام كلُّهم، وكان أوَّل ما كادهم به الشَّيطان: هو تعظيم الصَّالحين، وذَكرَ اللهُ ذلك في كتابه في قوله: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]».

قال ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان هؤلاء قومًا صالحين، فلمَّا ماتوا جزع عليهم أقاربهم، فصوَّروا صورهم، حتَّىٰ ذهب ذلك القرن، ثمَّ جاء قرنٌ آخر، فعظَّموهم أشدَّ من الأوَّل، ثمَّ جاء القرن الثَّالث، فقالوا: ما عظَّم آباؤنا هؤلاء إلَّا وهم يرجون شفاعتَهم عند الله، فعبدوهم.

فلمَّا بعث الله إليهم نوحًا وغرق من غرق، قذف الماءُ هذه الأصنام إلىٰ أرض جُدَّة، فلمَّا نضب الماء بقيت علىٰ الشَّطِّ، فسفت الرِّيح عليها التُّراب حتَّىٰ وارتها وأخفتها».

عمرو بن لُحَيٍّ

أوَّل من غيَّر دين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ

كان عمرو بن لُحَيٍّ سيدُ خُزاعة كاهنًا وله رِئْيٌ من الجنِّ -أي: جني يراه ويؤالفه-، فأتاه فقال: «عجِّل السَّير والظَّعن -أي: الذهاب والسفر- من تِهامة، بالسَّعد والسَّلامة، ائتِ جدَّة، تجد أصنامًا مُعدَّة، فأوردها تهامة ولا تهب، وادعُ العرب إلىٰ عبادتها تُجب». فأتىٰ جدَّة فاستثارها فوجدها، ثمَّ حملها حتَّىٰ أوردها تهامة، وحضر الحجُّ، فدعا العرب إلىٰ عبادتها.

فأجابه عوف بن عذرة، فدفع إليه **وَدًّا**، فحمله فكان بوادي القُرَىٰ بدومة الجَنْدل، وسمَّىٰ ابنه: عبدَ وَدٍّ.

وأجابت مضَرُ بن نزارٍ عمرَو بن لُحيٍّ، فدفع إلىٰ رجلٍ من هُذَيْلٍ سُواعًا، فكان بأرضٍ يُقال لها: وُهاطٌ من بطن نخلةَ، يعبده من يليه من مُضر.

وأجابته مَذْحَجٌ، فدفع إلىٰ نعيم بن عمر المُراديِّ يغوثَ، وكان بأَكَمَةٍ باليمن تعبده مَذحج ومَن والاها.

وأجابته هَمدان، فدفع إليهم يعوقَ، فكان بقريةٍ يُقال لها: خِيوان، تعبده هَمدان ومَن والاها من اليمن.

وأجابته حِمْيَرٌ، فدفع إليهم نَسْرًا، فكان بموضعٍ بسبأٍ، تعبده حميرٌ ومَن والاها.

فلم تزل هذه الأصنام تُعبد حتَّىٰ بعث الله رسوله ﷺ، فكسرها.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**رأيتُ عمرَو بن عامرٍ الخُزاعيَّ يجرُّ قُصْبَه في النَّار؛ فكان أوَّلَ من سيَّب السَّوائب**». [رواه البخاري (٤٦٢٣)، ومسلم (٢٨٥٦)].

وكان أهل الجاهليَّة علىٰ ذلك فيهم بقايا من دين إبراهيم، مثل: تعظيم البيت، والطَّواف به، والحجِّ والعمرة، والوقوف بعرفة ومُزدلفة، وإهداء البُدْن.

ثمَّ انتشرت عبادة الأصنام في جزيرة العرب، فمنها:

«**مَنَاة**»: وكان منصوبًا علىٰ ساحل البحر من ناحية المُشَلَّل بقديدٍ، بينَ مكَّة والمدينة، وكانت العرب تُعظِّمه قاطبةً، ولم يكن أحدٌ أشدَّ تعظيمًا له من الأوس والخزرج، فبعث رسول الله ﷺ عليًّا رضي الله عنه فهدمها عام الفتح.

و«**اللَّات**»: في الطَّائف، وكانت ثقيفٌ سدنتَها، وكان جميع العرب يعظِّمونها، فلمَّا أسلمت ثقيفٌ، بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المُغيرة بن شُعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فهدمها، وحرقها بالنَّار.

و«**العُزَّىٰ**»: وكانت بوادي نخلة، فوقَ ذات عِرقٍ، وكانت قريشٌ تعظِّمها، فلمَّا فتح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكَّة، بعث خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأتاها فعضدها، فإذا بامرأةٍ حبشيَّةٍ نافشةٍ شعرها، فضربها ففلق رأسها.

و«**هُبَلُ**»: وكان لقريشٍ، وكان في جوف الكعبة، وكان من عقيقٍ أحمر علىٰ صورة الإنسان، وكانوا إذا اختصموا أو أرادوا سفرًا: أتوه فاستقسموا بالقِداح عندَه.

و«**ذو الخَلَصَة**»: وكان لخَثْعَم وبَجِيلَة بينَ مكَّة والمدينة، وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجَرير بن عبد الله البَجَليِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ألا تُريحُني من ذي الخَلَصَة؟**». [رواه البخاري (٣٠٢٠)، ومسلم (٢٤٧٦)]، فسار إليه فقاتلته هَمدان، فظفر بهم وهدمه.

ولمَّا فتح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكَّة، وجد حول البيت ثلاثمائةٍ وستِّين صنمًا، فجعل يطعن في وجوهها وعيونها،

ويقول: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ [الإسراء: ٨١]، وهي تتساقط علىٰ رؤوسها، ثمَّ أمر بها فأُخرجت من المسجد وحُرِّقت.

بَدء الوَحْي

أوَّل ما بُدِئ به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الوحي: الرُّؤيا الصَّادقة، فكان لا يرىٰ رُؤيا إلَّا جاءت مثلَ فَلَق الصُّبح، ثمَّ حُبِّب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حِراء، فيتحنَّث فيه -وهو التَّعبُّد- اللَّياليَ ذوات العدد، قبل أن يرجع إلىٰ أهله، ويتزوَّد لذلك، ثمَّ يرجع إلىٰ خديجة فيتزوَّد لمثلها، حتَّىٰ فَجِئَهُ الحقُّ -أي: جبريل- وهو في غار حِراء.

فقال له: اقرأ، فقلتُ: ما أنا بقارئٍ، قال: فأخذني فغطَّني -أي: غمَّني- حتَّىٰ بلغ منِّي الجَهْدَ، ثمَّ أرسلني، فقال: اقرأ، فقلتُ: ما أنا بقارئٍ، فأخذني فغطَّني الثَّانية حتَّىٰ بلغ منِّي الجَهْدَ، ثمَّ أرسلني، فقال: اقرأ، فقلتُ: ما أنا بقارئٍ، فأخذني فغطَّني الثَّالثة، ثمَّ أرسلني، فقال لي في الثَّالثة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ - ٥].

فرجع بها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرجف فؤاده، حتَّىٰ دخل علىٰ خديجة بنت خويلدٍ، فقال: زمِّلوني زمِّلوني -أي: لفوني فِي ثِيَابِي-، فزمَّلوه حتَّىٰ ذهب عنه الرَّوْع.

فقال لخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -وأخبرها الخبر-: لقد خشيتُ علىٰ نفسي. فقالت خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كلا والله، ما يُخزيك الله أبدًا؛ إنَّك لتصل الرَّحم، وتحمل الكَلَّ -أي: الضَّعيف-، وتَقْرِي الضَّيف، وتُكْسِب المعدوم، وتُعين علىٰ نوائب الحقِّ.

فانطلقت به خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حتَّىٰ أتت به ورقة بن نَوفل بن أسد بن عبد العُزَّىٰ -ابن عمِّ خديجة-، وكان قد تنصَّر في الجاهليَّة، وكان يكتب الكتاب العبرانيَّ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانيَّة ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمِيَ.

فقالت له خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا ابن عمِّ، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترىٰ؟ فأخبره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبر ما رأىٰ. فقال له ورقة: هذا النَّاموس الَّذي أنزل الله علىٰ موسىٰ، يا ليتني فيها جَذَعًا، ليتني أكون حيًّا إذ يُخرجك قومُك؟ قال: أوَ مُخرِجيَّ هم؟ قال: نعم، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بمثل ما جئتَ به إلَّا عُودِيَ، وإن يُدرِكْني يومُك أنصرْك نصرًا مُؤزَّرًا.

فلم يلبث ورقة أن تُوفِّي وفَترَ الوحيُّ، حتَّىٰ حزن رسول الله ﷺ حزنًا شديدًا.

فبينَما هو يومًا يمشي إذ سمع صوتًا من السَّماء، قال: فرفعتُ بصري، فإذا الملك الَّذي جاءني بحِراء جالسٌ علىٰ كرسيٍّ بينَ السَّماء والأرض، فرُعبتُ منه، فرجعت إلىٰ أهلي، فقلت: دثِّروني دثِّروني -أي: غطوني بما أدفأ به-. فأنزل الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ [المدثر: ١ - ٢]، فحمي الوحي وتتابع. [رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦١)].

فقام ﷺ يدعو إلىٰ الله، فاستجاب له عِبادٌ من كلِّ قبيلةٍ، فكان حائزُ السَّبق: صدِّيقَ الأُمَّة أبا بكرٍ رضي الله عنه، فوازره في دين الله، ودعا معَه إلىٰ الله، فاستجاب لأبي بكرٍ: عُثمانُ، وطَلْحَةُ، وسعدٌ رضي الله عنهم.

وبادر إلىٰ الاستجابة أيضًا: صدِّيقة النِّساء خديجة رضي الله عنها، وبادر إلىٰ الإسلام: عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه، وكان ابنَ ثماني سنين، وقد كان في كفالة رسول الله ﷺ، أخذه من عمِّه.

وبادر زيد بن حارثة رضي الله عنه، حِبُّ رسول الله ﷺ، وكان غلامًا لخديجة، فوهبته لرسول الله ﷺ لمَّا تزوَّجها،

وقدم أبوه حارثة وعمُّه في فدائه، فقالا للنَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: يا ابن سيِّد قومه، أنتم أهل حرم الله وجيرانه، تَفُكُّون العانيَ، وتُطعِمون الأسير، جئناك في ابننا عندك، فأحسن لنا في فدائه. فقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: فهل غير ذلك؟ فقالوا: وما هو؟ قال: أدعوه فأُخيِّره، فإن اختاركم فهو لكم، وإن اختارني، فوالله ما أنا بالَّذي أختار علىٰ مَن اختارني. قالوا: قد زدتنا علىٰ النَّصَف وأحسنتَ. فدعاه فقال: هل تعرف هؤلاء؟ قال: نعم أبي وعمِّي. قال: فأنا مَن قد علمتَ، وقد رأيتَ صُحبتي لك، فاخترني أو اخترهما. فقال: ما أنا بالَّذي أختار عليك أحدًا، أنت منِّي مكان أبي وعمِّي. فقالا: ويحك يا زيد! أتختار العبوديَّة علىٰ الحُرِّيَّة؟! وعلىٰ أبيك وعمِّك وأهل بيتك؟! قال: نعم، قد رأيتُ من هذا الرَّجل شيئًا ما أنا بالَّذي أختار عليه أحدًا أبدًا. فلمَّا رأىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ذلك خرج إلىٰ الحِجْر، فقال: أُشهدكم أنَّ زيدًا ابني، أرثه ويرثني، فلمَّا رأىٰ ذلك أبوه وعمُّه طابت نفوسهما، فانصرفا. ودُعِيَ: زيد بن محمَّدٍ، حتَّىٰ جاء الله بالإسلام فنزلت: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥].

ودخل النَّاس في دين الله واحدًا بعدَ واحدٍ، وقريشٌ لا تُنكر ذلك، حتَّىٰ بادأهم بعيب دينهم، وبيان ضلال ما يعبدون، وأنَّها لا تضرُّ ولا تنفع، فحينَئذٍ شمَّروا له ولأصحابه عن ساق العداوة.

فحَمَىٰ الله رسوله ﷺ بعمِّه أبي طالبٍ؛ لأنَّه كان شريفًا مُعظَّمًا، وكان من حكمة أحكم الحاكمين: بقاؤه علىٰ دين قومه؛ لما في ذلك من المصالح الَّتي تبدو لمن تأمَّلها.

وأمَّا أصحابه، فمَن كان له عشيرةٌ تحميه، امتنع بعشيرته.

ومَن ليس له عشيرةٌ، فإنَّ قُريشًا تصدَّوْا له بالأذىٰ والعذاب، منهم: عمَّار بن ياسرٍ، وأمُّه سُمَيَّة، وأهل بيته، عُذِّبوا في الله، وكان رسول الله ﷺ إذا مرَّ بهم وهم يُعذَّبون يقول: «**صبرًا يا آل ياسر، فإنَّ موعدكم الجنَّة**». [رواه الحاكم (٥٦٦٦)].

ومرَّ أبو جهلٍ بسُمَيَّة وهي تُعذَّب، فطعنها بحربةٍ في فرجها فقتلها.

وكان الصِّدِّيق إذا مرَّ بأحدٍ من العبيد يُعذَّب اشتراه وأعتقه، منهم: بلالٌ، فإنَّه عُذِّب في الله أشدَّ العذاب، ومنهم: عامر بن فُهَيرة، وجاريةٌ لبني عديٍّ كان عمر يُعذِّبها علىٰ الإسلام.

وكان بلالٌ كلَّما اشتدَّ به العذاب يقول: أَحَدٌ، أَحَدٌ.

ابتداء الدَّعوة

قام رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بمكَّة ثلاثَ سنين مُستخفيًا، ثمَّ أعلن في الرَّابعة.

فدعا النَّاس عشرَ سنين، يُوافي المواسم كلَّ عامٍ، يتبع النَّاس في منازلهم، وفي المواسم بعُكاظٍ، ومِجَنَّة، وذي المَجاز، يدعوهم أن يمنعوه حتَّىٰ يُبلِّغ رسالات ربِّه ولهم الجنَّة، فلا يجد أحدًا ينصره ويحميه.

وكان في المواسم يسأل عن القبائل ومنازلها قبيلةً قبيلةً، ويقول: «**أيُّها النَّاس، قولوا: لا إله إلَّا الله تُفلحوا، وتملكوا بها العرب، وتَدين لكم بها العجم، فإذا متُّم كنتم ملوكًا في الجنَّة**».

وأبو لهبٍ وراءَه يقول: لا تُطيعوه فإنَّه صابئٌ كذَّابٌ، فيردُّون علىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أقبح الرَّدِّ ويؤذونه، ويقولون: عشيرتك أعلم بك حيثُ لم يتَّبعوك.

ولمَّا نزل عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، صعِد الصَّفا فنادىٰ: واصباحاه! فلمَّا اجتمعوا

إليه قال: «**لو أخبرتُكم أنَّ خيلًا تُريد أن تخرج عليكم من سفح هذا الجبل، أكنتُم مُصدِّقيَّ؟**» قالوا: نعم، ما جرَّبنا عليك كذبًا. قال: «**فإنِّي نذيرٌ لكم بينَ يدَيْ عذابٍ شديدٍ**». فقال أبو لهبٍ: تبًّا لك! ما جمعتنا إلَّا لهذا؟! فأنزل الله قوله تعالىٰ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: ١ - ٢].

[رواه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨)]. تَبَّتْ: أي: خَسِرَتْ وهلَكَتْ.

أوَّل دمٍ أُهرِيقَ في الإسلام

في السَّنة الرَّابعة: ضرب سعد بن أبي وقَّاصٍ رجلًا من المشركين فشَجَّه -أي: جرحه في رأسه أو وجهه-، وذلك: أنَّ أصحاب رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كانوا يجتمعون في الشِّعاب، فيُصلُّون فيها.

فرآهم رجلٌ من الكفَّار ومعَه جماعةٌ من قريشٍ، فسبوهم، فضرب سعد بن أبي وقَّاصٍ رجلًا منهم، فسال دمُه، فكان أوَّل دمٍ أُهريق في الإسلام.

استِهزاء المشركين:

كان النَّبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إذا جلس وحولَه المستضعفون من أصحابه -مثل: عمَّار بن ياسرٍ، وخَبَّاب بن الأرَتِّ، وصُهيبٍ الرُّوميِّ، وبلالٍ، وأشباههم- فمرَّت بهم قريشٌ استهزؤوا بهم وقالوا: أهؤلاء جلساؤه الَّذين قد مَنَّ الله عليهم من بيننا؟! فأنزل الله: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

وقال أبو جهلٍ: يُعفِّر محمَّدٌ وجهَه بينَ أظهركم؟ -أي: يصلِّي- فقيل: نعم، فقال: واللَّات والعُزَّىٰ، لئن رأيتُه لأطأنَّ علىٰ رقبته. فأتىٰ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يُصلِّي، فما فَجِئَهُمْ أبو جهلٍ إلَّا وهو ينكص علىٰ عقِبيه ويتَّقي بيديه، وقال: بيني وبينَه خندقٌ من نارٍ وهَوْلٌ وأجنحةٌ. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لو دنا منِّي لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا**»، وأنزل الله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ - ٧]».

[رواه مسلم (٢٧٩٧)].

السَّنة الخامسة من البَعثة

الهجرة الأُولىٰ إلىٰ الحبشة:

أمر النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابَه بالهجرة إلىٰ الحبشة لمَّا اشتدَّ عليهم العذاب والأذىٰ، وقال: «**إنَّ فيها رجلًا لا يُظلَم النَّاس عندَه**».

وكانت الحبشة مَتْجَر قريشٍ، وكان أهل هذه الهجرة الأولىٰ: اثني عشرَ رجلًا وأربع نسوةٍ.

وكان أوَّل مَن هاجر إليها: عثمان بن عفَّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومعَه زوجته رُقيَّة بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وممَّن خرج: الزُّبَير، وعبد الرَّحمن بن عَوفٍ، وابن مسعودٍ، وأبو سَلَمة وامرأته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

خرجوا مُتسلِّلين سِرًّا، فوفَّق الله لهم ساعةَ وصولهم إلىٰ السَّاحل سفينتين للتُّجَّار، فحملوهم إلىٰ الحبشة، وخرجت قريشٌ في آثارهم حتَّىٰ جاؤوا البحر، فلم يدركوا منهم أحدًا.

وكان خروجهم في رجبٍ، فأقاموا بالحبشة شعبان ورمضان، ثمَّ رجعوا إلىٰ مكَّة في شوَّالٍ، لمَّا بلغَهم: أنَّ قريشًا صافَوْا رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وكَفُّوا عنه.

ولمَّا استمرَّ النَّبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ علىٰ عيب آلهتهم، عادوا إلىٰ شرٍّ ممَّا كانوا عليه، وازدادوا شدَّةً علىٰ من أسلم.

واستتر رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في دار الأرقم بن أبي الأرقم.

الهجرة الثَّانية إلىٰ الحبشة:

لمَّا قرب مُهاجرة الحبشة من مكَّة، وبلغهم أمرهم، توقَّفوا عن الدُّخول، ثمَّ دخل كلُّ رجلٍ في جوار رجلٍ من قريشٍ.

ثمَّ اشتدَّ عليهم البلاء والعذاب من قريشٍ، وصعب عليهم ما بلغهم عن النَّجاشيِّ من حسن جواره، فأذن لهم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الخروج إلىٰ الحبشة مرَّةً ثانيةً، فخرجوا.

وكان عدَّة من خرج في المرة الثَّانية: ثلاثةً وثمانين رجلًا، ومن النِّساء: تسعَ عشرةَ امرأةً.

السَّنة السَّادسة من البَعثة

إسلام حمزة بن عبد المطَّلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

مرَّ أبو جهلٍ برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندَ الصَّفا، فآذاه ونال منه، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ساكتٌ، فقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودخل المسجد.

وكانت مولاةٌ لعبد الله بن جعدان في مسكنٍ لها علىٰ الصَّفا تسمع ما يقول أبو جهلٍ.

وأقبل حمزة من القَنْص -أي: الصيد- مُتوشِّحًا قوسه، وكان يُسمَّىٰ: أَعَزَّ قريشٍ، فأخبرته مولاة ابن جدعان بما سمعت من أبي جهلٍ، فغضب.

ودخل المسجد -وأبو جهلٍ جالسٌ في نادي قومه- فقال له حمزة: يا مُصَفِّر اسْتِه، تشتم ابن أخي وأنا علىٰ دينه؟! ثمَّ ضربه بالقوس فشَجَّه مُوضِحةً.

فثار رجالٌ من بني مخزومٍ، وثار بنو هاشمٍ، فقال أبو جهلٍ: دعوا أبا عمارة، فإنِّي سببتُ ابن أخيه سبًّا قبيحًا.

فعلمتُ قريشٌ أنَّ رسول الله ﷺ قد عَزَّ، فكفُّوا عنه بعض ما كانوا ينالون منه.

إسلام عُمر بن الخطَّاب رضي الله عنه :

عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ، أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ**»، قَالَ: وَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ عُمَرُ. [رواه الترمذي (٣٦٨١)].

ورُوي عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، أنَّه قال لعُمر رضي الله عنه: «لم سُمِّيت الفاروق؟

فقال: أسلم حمزة قبلي بثلاثة أيَّامٍ، ثمَّ شرح الله صدري للإسلام، وأوَّل شيءٍ سمعته من القُرآن ووَقَر في صدري: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [طه: ٨]».

فما في الأرض نَسَمةٌ أحبُّ إليَّ من نسمة رسول الله ﷺ، فسألت عنه؟ فقيل لي: هو في دار الأرقم.

فأتيتُ الدَّار وحمزة في أصحابه جلوسًا في الدَّار، ورسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في البيت، فضربت الباب، فاستجمع القوم، فقال لهم حمزة: ما لكم؟ فقالوا: عمر.

فخرج رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فأخذ بمجامع ثيابي، ثمَّ نترني نترةً لم أتمالك أن وقعتُ علىٰ ركبتي، فقال: «**ما أنتَ بمُنتهٍ يا عمر؟**». فقلت: أشهد أن لا إله إلَّا الله وأنَّك رسول الله، فكبَّر أهل الدَّار تكبيرةً سمعها أهل المسجد.

فقلت: يا رسول الله، ألسنا علىٰ الحقِّ إن متنا أو حيينا؟ قال: بلىٰ. فقلت: ففيم الاختفاء؟ والَّذي بعثك بالحقِّ لتخرجنَّ، فخرجنا في صفَّين: حمزة في صفٍّ، وأنا في صفٍ، حتَّىٰ دخلنا المسجد.

فلمَّا نظرت إلينا قريشٌ أصابتهم كآبةٌ لم يصبهم مثلُها قطُّ، فسمَّاني رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الفاروق».

وقال صُهيبٌ: لمَّا أسلم عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ جلسنا حول البيت حِلقًا، فطُفنا واستنصفنا ممَّا غلظ علينا.

حماية أبي طالبٍ لرسول الله ﷺ :

لمَّا رأت قُريشٌ أنَّ رسول الله ﷺ يتزايد أمرُه ويقوَىٰ، ورأوا ما صنع أبو طالبٍ به.

مشوا إليه بعمارة بن الوليد، فقالوا: يا أبا طالبٍ، هذا أنهد -أي: أشد وأقوىٰ- فتًىٰ في قريشٍ وأجمله، فخذه وادفع إلينا هذا الَّذي خالف دينَك ودينَ آبائك فنقتله، فإنَّما هو رجلٌ برجلٍ.

فقال: بئسما تسومونني، تعطوني ابنكم أُربِّيه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟!

فقال المُطعِم بن عديِّ بن نوفلٍ: يا أبا طالبٍ، قد أنصفك قومك، وجهدوا علىٰ التَّخلُّص منك بكلِّ طريقٍ.

قال: والله ما أنصفتموني! ولكنَّك أجمعتَ علىٰ خِذلاني، فاصنع ما بدا لك.

وقال أشراف مكَّة لأبي طالبٍ: إمَّا أن تُخلِّي بينَنا وبينَه فنكفيكه؛ فإنَّك علىٰ مثل ما نحن عليه، أو أَجْمِع لحربنا؛ فإنَّا لسنا بتاركي ابن أخيك علىٰ هذا حتَّىٰ نُهْلكَهُ أو يكفَّ عنا، فقد طلبنا التَّخلُّص من حربك بكلِّ ما نظن أنَّه يُخلِّص.

فبعث أبو طالبٍ إلىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال له: يا ابن أخي، إنَّ قومك جاءوني، وقالوا كذا وكذا، فأَبْقِ عليَّ وعلىٰ نفسك، ولا تُحمِّلني ما لا أُطيق أنا ولا أنت، فاكفُفْ عن قومك ما يكرهون من قولك.

فقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**واللهِ، لو وضعوا الشَّمس في يميني والقمر في يساري، ما تركتُ هذا الأمر حتَّىٰ يُظهِره الله، أو أهلك في طلبه**».

فقال: امضِ علىٰ أمرك، فوالله لا أُسلمك أبدًا.

ودعا أبو طالبٍ أقاربه إلىٰ نصرته، فأجابه بنو هاشمٍ وبنو المطَّلب، غير أبي لهبٍ.

وقال أبو طالبٍ:

واللهِ لــن يصلــوا إليــك بجمعِهم
حتَّــىٰ أُوسَّــدَ في التُّــراب دفينــا

فاصدعْ بأمرك ما عليــك غَضاضةٌ
وابشــرْ وقَــرَّ بــذاكَ منــك عيونا

ودعوتني، وعرفــتُ أنَّك ناصحي
ولقــد صدقــتَ، وكنتَ ثَــمَّ أمينا

وعرضـــتَ دينًا قـــد عرفـــتُ بأنَّه

مـــن خيـــر أديـــان البريَّـــة دينـــا

لـــولا الملامـــة أو حِـــذار مَســـبَّةٍ

لوجدتنـــي ســـمحًا بـــذاك مُبينـــا

حصار بني هاشمٍ في الشِّعب:

لمَّا اجتمع بنو هاشمٍ -مؤمنهم وكافرهم- علىٰ منع رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، اجتمعت قريشٌ، فأجمعوا أمرهم علىٰ ألَّا يجالسوهم، ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم، حتىٰ يُسلموا رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ للقتل.

وكتبوا بذلك صحيفةً فيها عهودٌ ومواثيقُ: «ألَّا يقبلوا من بني هاشمٍ صُلحًا أبدًا، ولا تأخذهم بهم رأفةٌ حتَّىٰ يُسلموه للقتل».

فأمرهم أبو طالبٍ أن يدخلوا شِعبه، فلبثوا فيه ثلاثَ سنين.

واشتدَّ عليهم البلاء، وقطعوا عنهم الأسواق، فلا يتركون طعامًا يدخل مكَّة ولا بيعًا إلَّا بادروا فاشتروه، ومنعوا أن يصل شيءٌ منه إلىٰ بني هاشمٍ، حتَّىٰ كان يُسمَع أصوات نسائهم يَتَضاغَوْن -أي: يضِجُّون ويصيحون- من وراء الشِّعب من الجوع.

واشتدُّوا علىٰ مَن أسلم ممَّن لم يدخل الشِّعب، فأوثقوهم، وعظمت الفتنة، وزلزلوا زلزالًا شديدًا.

السَّنة العاشرة من البَعثة

نَقْض الصَّحيفة:

ثمَّ مشىٰ هشام بن عمرٍو من بني عامر بن لُؤيٍّ -وكان يصل بني هاشمٍ في الشِّعب خُفيةً باللَّيل بالطَّعام- إلىٰ زُهير بن أبي أُميَّة المخزوميِّ -وكانت أمُّه عاتكة بنت عبد المطَّلب-، وقال يا زُهير، أرضيتَ أن تأكل الطَّعام وتشرب الشَّراب وأخوالك بحيثُ تعلم؟!

فقال: ويحك! فما أصنع وأنا رجلٌ واحدٌ؟ أما والله لو كان معي رجلٌ آخَر لقُمت في نقضها. قال: أنا. قال: ابغنا ثالثًا. قال: أبو البَخْتَريِّ بن هشامٍ. قال: ابغنا رابعًا. قال: زَمْعَة بن الأسود. قال: ابغنا خامسًا. قال: المُطعِم بن عَديٍّ.

قال: فاجتمعوا عند الحَجُون، وتعاقدوا علىٰ القيام بنقض الصَّحيفة. فقال زُهيرٌ: أنا أبدأ بها.

فجاؤوا إلىٰ الكعبة وقريشٌ مُحدِقةٌ بها، فنادىٰ زهيرٌ: يا أهل مكَّة، إنَّا نأكل الطَّعام ونشرب الشَّراب ونلبس الثِّياب

وبنو هاشمٍ هلكَىٰ! والله لا أقعد حتَّىٰ تُشقَّ الصَّحيفة القاطعة الظَّالمة!

فقال أبو جهلٍ: كذبتَ، والله لا تُشقُّ. فقال زَمْعة: أنتَ والله أكذب، ما رضينا كتابتها حينَ كُتِبَتْ. وقال أبو البَخْتَريِّ: صدق زَمعة، لا نرضىٰ ما كُتب فيها ولا نقارُّ عليه. فقال المُطعِم بن عديٍّ: وكذب مَن قال غير ذلك، نبرأ إلىٰ الله منها، وممَّا كُتب فيها. وقال هشام بن عمرٍو نحوَ ذلك.

فقال أبو جهلٍ: هذا أمرٌ قد قُضِي بليلٍ تُشُوور فيه بغير هذا المكان!

وبعث الله علىٰ صحيفتهم الأَرَضَة -السوس-، فأكلت كلَّ اسمٍ لله فيها، وأطلع الله رسولَه علىٰ الَّذي صنع بصحيفتهم، فذَكر ذلك لعمِّه، فانطلق يمشي بعصابةٍ من بني عبد المطَّلب، حتَّىٰ أتىٰ المسجد وهو حافلٌ في قريشٍ.

فلمَّا رأوهم ظنُّوا أنَّهم خرجوا من شدَّة الحصار، وأتوا ليُعطُوهم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فتكلَّم أبو طالبٍ فقال: قد حدث أمرٌ لعلَّه أن يكون بينَنا وبينكم صُلحًا، فأتُوا بصحيفتكم.

وإنَّما قال ذلك خشيةَ أن ينظروا فيها قبل أن يأتوا بها، فلا يأتون بها.

فأتوا بها مُعجبِين، لا يشكُّون أنَّ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مدفوعٌ إليهم، قالوا: قد آنَ لكم أن تَفِيئوا وترجعوا.

فقال أبو طالبٍ: لأُعطينَّكم أمرًا فيه نَصَفٌ: إنَّ ابني أخبرني -ولم يكذبني-: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ بريءٌ من هذه الصَّحيفة الَّتي في أيديكم، وأنَّه محا كلَّ اسمٍ له فيها، وترك فيها غدرَكم وقطيعتكم.

فإن كان ما قال حقًّا، فوالله لا نُسلمه إليكم حتَّىٰ نموت عن آخِرنا، وإن كان الَّذي يقول باطلًا، دفعناه إليكم فقتلتموه أو استحييتموه.

قالوا: قد رضينا. ففتحوا الصَّحيفة فوجدوها كما أخبر، فقالوا: هذا سحرٌ من صاحبكم! فارتَكَسوا وعادوا إلىٰ شرِّ ما هم عليه.

فتكلَّم عندَ ذلك النَّفر الَّذين تعاقدوا، وتمَّ نقض الصَّحيفة.

فخرج بنو هاشمٍ من شِعبهم وخالطوا النَّاس، وقد أسلم هشام بن عمرٍو يوم الفتح.

موت أبي طالبٍ وخديجة رضي الله عنها :

ومات أبو طالبٍ بعدَ نقض الصَّحيفة بستَّة أشهرٍ، وماتت خديجة أمُّ المؤمنين رضي الله عنها بعدَ موت أبي طالبٍ بأيَّامٍ.

فاشتدَّ البلاء علىٰ رسول الله ﷺ من قومه بعدَ موت خديجة وعمِّه، وتجرَّؤوا عليه، وكاشفوه بالأذَىٰ، وأرادوا قتله، فمنعهم الله من ذلك.

قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم في الحِجر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل صبرنا عليه؛ سفَّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وفرَّق جماعتنا، فبينَما هم في ذلك إذ أقبل فاستلم الرُّكن، فلمَّا مرَّ بهم غمزوه».

وفي حديثٍ أنَّه قال لهم في الثَّانية: «**لقد جئتكم بالذَّبح**»، وأنهم قالوا له: يا أبا القاسم ما كنتَ جهولًا، فانصرف راشدًا. [رواه أحمد (٧٠٣٦)].

فلمَّا كان من الغد اجتمعوا، فقالوا: ذكرتم ما بلغ منكم، حتَّىٰ إذا أتاكم بما تكرهون تركتموه! فبينَما هم كذلك إذ طلع

عليهم، فقالوا: قوموا إليه وَثْبَة رجلٍ واحدٍ. فلقد رأيتُ عُقبة بن أبي مُعيطٍ آخذًا بمجامع ردائه، وقام أبو بكرٍ دُونَه وهو يبكي، يقول: أتقتلون رجلًا أن يقول ربِّي الله؟!

وفي حديث أسماء: فأتىٰ الصَّريخ إلىٰ أبي بكرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فقالوا: أدرك صاحبك. فخرج من عندنا وله غدائر أربعٌ، فخرج وهو يقول: وَيْلَكم! أتقتلون رجلًا أن يقول ربِّي الله؟ فلهوا عنه وأقبلوا علىٰ أبي بكرٍ، فرجع إلينا لا يَمسُّ شيئًا من غدائره إلَّا رجع معَه.

ومرَّةً كان يُصلِّي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عندَ البيت ورَهْطٌ من أشرافهم يرونه، فأتىٰ أحدهم بسَلَا جزورٍ -هُوَ اللِّفَافَةُ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا الْوَلَدُ فِي بَطْنِ النَّاقَةِ وَسَائِرِ الْحَيَوَانِ- فرماه علىٰ ظهره.

وكان أبو جهلٍ وجماعةٌ معَه وفيهم الأَخْنَس بن شُريقٍ، يستمعون قراءة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في اللَّيل، فقال الأخنس لأبي جهلٍ: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعتَ من محمَّدٍ؟

فقال: تنازعنا نحن وبنو عبد مَنافٍ الشَّرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتَّىٰ إذا تجاثينا علىٰ الرُّكب

وكنَّا كفرسَيْ رهانٍ، قالوا: منَّا نبيٌّ يأتيه الوحيُ من السَّماء، فمتىٰ نُدرك هذا؟ والله لا نسمع له أبدًا، ولا نُصدِّقه أبدًا.

سؤالهم عن الرُّوح وأهل الكهف:

كان كفَّار قريشٍ يُرسِلون إلىٰ أهل الكتاب يسألونهم عن أمره.

فبعثت قريشٌ النَّضر بن الحارث وعُقبة بن أبي مُعيطٍ إلىٰ أحبار اليهود بالمدينة، فقالوا لهما: سلاهم عن محمَّدٍ وصفا لهم صفته؛ فإنَّهم أهل الكتاب وعندهم ما ليس عندَنا من علم الأنبياء. فخرجا حتَّىٰ قدما المدينة، فسألاهم عنه ووصفا لهم أمره.

فقالت لهما أحبار اليهود: سلوه عن ثلاثٍ، فإن أخبركم بهنَّ فهو نبيٌّ مُرسَلٌ، وإلَّا فهو رجلٌ مُتقوِّلٌ -أي: مُفترٍ كذاب-.

سلوه عن فتيةٍ ذهبوا في الدَّهر الأوَّل، ما كان أمرُهم؟ فإنَّه قد كان لهم حديثٌ عجيبٌ، وسلوه عن رجلٍ طوَّافٍ قد بلغ مشارق الأرض ومغاربَها، فما كان نبؤه؟ وسلوه عن الرُّوح ما هو؟

فأقبلا حتَّىٰ قدما مكَّة، فقالوا: قد جئناكم بفَصْل ما بينكم

وبينَ محمَّدٍ، قد أخبرَنا أحبار يهودٍ أن نسأله عن أشياء أمرونا بها.

فجاؤوا رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فسألوه عمَّا أخبرهم أحبار يهودٍ، فجاءه جبريل بسورة الكهف فيها خبر ما سألوه عنه من الفتية والرَّجل الطَّوَّاف، وجاءه بقوله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥] الآية.

انشقاق القمر:

كان كفَّار قريشٍ يسألون رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الآيات، فمنها ما يأتيهم الله به لحكمة أرادها سبحانه.

فمن ذلك: أنَّهم سألوه أن يُريَهم آيةً، فأراهم انشقاق القمر، وأنزل الله تعالىٰ قوله: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١] إلىٰ قوله ﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ [القمر: ٣]

فقالوا: سَحرَكم، انظروا إلىٰ السُّفَّار، فإن كانوا رأوا مثل ما رأيتم فقد صدق، فقدموا من كل وجهٍ، فقالوا: رأينا.

سؤالهم الآيات:

كان رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ربَّما طلب من الله الآيات الَّتي

يقترحون رغبةً منه في إيمانهم، فيُجاب بأنَّها لا تَستلزم الهُدىٰ، بل تُوجِب عذاب الاستئصال لمَن كذَّب بها.

وقد سأله أهل مكَّة أن يجعل لهم الصَّفا ذهبًا، وأن يُنحِّيَ عنهم الجبال حتَّىٰ يزرعوا.

فقيل له صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: إن شئت أن تَسْتَأَني بهم، وإن شئت أن نؤتيهم الَّذي سألوا، فإن كفروا هلكوا، كما هلك مَن قبلهم. فقال: بل أستأني بهم، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩] الآية.

[رواه أحمد (٢٣٣٣)].

خروجه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلىٰ الطَّائف:

لمَّا اشتدَّ البلاء من قريشٍ علىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعدَ موت عمِّه، خرج إلىٰ الطَّائف رجاء أن يُؤووه وينصروه علىٰ قومه، ويمنعوه منهم حتَّىٰ يُبلِّغ رسالة ربِّه.

فدعاهم إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فلم ير مَن يُؤوي ولم ير ناصرًا، وآذوه أشدَّ الأذىٰ، ونالوا منه ما لم ينل قومه.

وكان معَه زيد بن حارثة مولاه، فأقام بينَهم عشرة أيَّامٍ،

لا يدع أحدًا من أشرافهم إلَّا كلَّمه، فقالوا: اخرج من بلدنا. وأغرَوا به سفهاءهم، فوقفوا له سِماطَيْن -أي: صَفَّيْن-، وجعلوا يرمونه بالحجارة وبكلماتٍ من السَّفه، حتَّىٰ دَمِيت قدماه، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتَّىٰ أصابه شِجاجٌ -أي: جراح- في رأسه، فانصرف إلىٰ مكَّة محزونًا.

وفي مرجعه دعا بالدُّعاء المشهور: «**اللَّهمَّ إنِّي أشكو إليك ضعف قوَّتي، وقلَّة حيلتي، وهواني علىٰ النَّاس، أنت ربُّ المستضعفين وأنت ربِّي، إلىٰ مَن تَكِلُني؟ إلىٰ بعيدٍ يتجَهَّمني** -أي: يكلح في وجهي-، **أو إلىٰ عدوٍّ ملَّكته أمري؟! إن لم يكُن بك غضبٌ عليَّ فلا أُبالي، غير أنَّ عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الَّذي أشرقت له الظُّلمات، وصلح عليه أمر الدُّنيا والآخرة، أن يحلَّ عليَّ غضبك، أو ينزل بي سخطك، لك العُتْبَىٰ** -أي: أفعل ما يرضيك وأترك ما يغضبك- **حتَّىٰ ترضىٰ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بك**». [رواه الطبراني في الكبير (١٣/ ٧٣)].

فأرسل ربُّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إليه مَلك الجبال يستأمره أن يُطبِق الأَخْشَبَين علىٰ أهل مكَّة -وهما جبلاها اللَّذان هي بينهما-، فقال «**بل**

أستأني بهم؛ لعلَّ الله أن يُخرج من أصلابهم مَن يعبده لا يشرك به شيئًا». [رواه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥) بنحوه].

فلمَّا نزل بنخلة في مرجعه، قام يُصلِّي من اللَّيل ما شاء الله، فصرف الله إليه نفرًا من الجنِّ، فاستمعوا قراءته، ولم يشعر بهم رسول الله ﷺ حتَّىٰ نزل عليه: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الأحقاف: ٢٩] إلىٰ قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٣٢].

وأقام بنخلة أيَّامًا، فقال زيد بن حارثة رضي الله عنه: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟ يعني: قُريشًا.

فقال: «**يا زيد، إنَّ الله جاعلٌ لما ترىٰ فرجًا ومخرجًا، وإنَّ الله ناصرٌ دينَه ومُظهِرٌ نبيَّه**».

ثمَّ انتهَىٰ إلىٰ مكَّة، فأرسل رجلًا من خُزاعة إلىٰ المُطعِم بن عديٍّ: أدخل في جِوارك؟ فقال: نعم. فدعا المُطعِم بنيه وقومه، فقال: البسوا السَّلاح وكونوا عندَ أركان البيت، فإنِّي قد أَجَرْت محمَّدًا. فانتهَىٰ رسول الله ﷺ إلىٰ الرُّكن فاستلمه وصلَّىٰ ركعتين، وانصرف إلىٰ بيته والمُطعِم بن عديٍّ وولده مُحدِقون به في السِّلاح حتَّىٰ دخل بيته.

الإسراء والمعراج:

ثمَّ أُسرِي برسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلىٰ بيت المقدس راكبًا علىٰ البُراق صُحبةَ جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، فنزل هناك وصلَّىٰ بالأنبياء إمامًا، وربط البراق بحلْقة باب المسجد.

ثمَّ عُرِج به إلىٰ السَّماء الدُّنيا، فرأىٰ فيها آدم، ورأىٰ أرواح السُّعداء عن يمينه، والأشقياء عن شماله.

ثمَّ إلىٰ السَّماء الثَّانية، فرأىٰ فيها عيسىٰ ويحيىٰ.

ثمَّ إلىٰ الثَّالثة، فرأىٰ فيها يوسف.

ثمَّ إلىٰ الرابعة، فرأىٰ فيها إدريس.

ثمَّ إلىٰ الخامسة، فرأىٰ فيها هارون.

ثمَّ إلىٰ السَّادسة، فرأىٰ فيها موسىٰ، فلمَّا جاوزه بكىٰ، فقيل له: ما يُبكيك؟ قال: أبكي أنَّ غلامًا بُعث بعدي يدخل الجنَّة من أُمَّته أكثر ممَّا يدخلها من أُمَّتي.

ثمَّ عُرِج به إلىٰ السَّماء السَّابعة، فلقي فيها إبراهيم.

ثمَّ إلىٰ سِدْرَة المُنتهَىٰ، ثمَّ رُفِع إلىٰ البيت المعمور، فرأىٰ هناك جبريل في صُورته له ستُّمائة جناحٍ، وهو قوله تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٣ - ١٤]

وكلَّمه ربُّه وأعطاه ما أعطاه، وأعطاه الصَّلاة، فكانت قُرَّة عين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلمَّا أصبح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قومه وأخبرهم، اشتدَّ تكذيبهم له، وسألوه أن يصف لهم بيت المقدس.

فجلَّاه الله له حتَّىٰ عاينه، وجعل يُخبرهم به، ولا يستطيعون أن يردُّوا عليه شيئًا.

وأخبرهم عن عِيرهم الَّتي رآها في مسراه ومرجعه، وعن وقت قدومها، وعن البعير الَّذي يقدمها، فكان كما قال، فلم يزدهم ذلك إلَّا ثُبُورًا -هلاكًا-، وأبىٰ الظَّالمون إلَّا كفورًا.

فصلٌ في الهِجرة

كان صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يُوافي الموسم كلَّ عامٍ يتبع الحاجَّ في منازلهم يدعوهم إلىٰ الله.

فكان ممَّن صنع الله لرسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: أنَّ الأوس والخزرج كانوا يسمعون من حلفائهم يهود المدينة: أنَّ نبيًّا يُبعث في هذا الزَّمان، فنتبعه ونقتلكم معَه قتل عادٍ.

وكانت الأنصار تحجُّ كغيرها من العرب دون اليهود، فلما رأىٰ الأنصار رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يدعو النَّاس إلىٰ الله وتأمَّلوا أحواله، قال بعضهم لبعضٍ: تعلمون والله يا قوم: إنَّ هذا الَّذي توعَّدكم به اليهود، فلا يسبقُنَّكُم إليه.

بيعة العَقَبة الأُولىٰ:

لقي رسولُ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عندَ العقبة ستَّةَ نفرٍ من الأنصار، كلُّهم من الخزرج، منهم: أسعد بن زُرارة، وجابر بن عبد الله.

فدعاهم إلىٰ الإسلام فأسلموا، ثمَّ رجعوا إلىٰ المدينة، فدعوا إلىٰ الإسلام، ففشا الإسلام فيها، حتَّىٰ لم تبقَ دارٌ إلَّا ودخلها.

فلمَّا كان العام المقبل جاء منهم اثنا عشر رجلًا: السِّتَّة الأُوَلُ خلا جابرًا، ومعهم: عُبادة بن الصَّامت، وأبو الهيثم بن التَّيِّهان، وغيرهم، الجميع اثنا عشر رجلًا.

وكان الأَوْس والخَزْرج أخويْنِ لأمٍّ وأبٍ، أصلهم من اليمن من سبأٍ، وأُمُّهم قَيْلَة بنت كاهلٍ، امرأةٌ من قُضاعة، ولذلك يُقال لهم: أبناء قَيْلَة.

فوقعت بينَهم العداوة بسبب قتيلٍ، فلبثت بينَهم الحرب مائةً وعشرين سنةً، إلىٰ أن أطفأها الله بالإسلام، وألَّف بينَهم برسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وذلك قوله: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] الآية.

فلمَّا انصرف الاثنا عشرَ رجلًا، بعث معَهم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مُصعَب بن عُميرٍ، وأمره أن يُقرئهم القُرآن، ويُعلِّمهم الإسلام، فنزل عندَ أسعد بن زُرارة.

فخرج بمصعبٍ مرَّةً، فدخل به حائطًا من حيطان بني ظُفَرٍ، فجلسا فيه واجتمع إليهما رجالٌ ممَّن أسلم.

إسلام سعد بن مُعاذٍ وأُسَيْد بن حُضَير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

قال سعد بن مُعاذٍ -سيِّد الأوس- لأُسَيد بن حُضيرٍ: اذهب إلىٰ هذينِ اللَّذين قد أتيا ليُسفِّها ضُعفاءنا فازجرهما؛ فإنَّ أسعد بن زُرارة ابن خالتي، ولولا ذلك لكفيتك ذلك.

وكان سعدٌ وأُسيدٌ سيِّدَيْ قومهما، فأخذ أُسيدٌ حربته ثمَّ أقبل إليهما، فلمَّا رآه أسعد بن زرارة قال لمُصعبٍ: هذا سيِّد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه.

قال مُصعبٌ: إن يُكلِّمني أُكلِّمه. فوقف عليهما فقال: ما جاء بكما إلينا، تُسفِّهان ضُعفاءنا؟! اعتزلا إن كان لكما في أنفسكما حاجةٌ.

فقال له مُصعبٌ: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلتَه، وإن كرهتَه كُفَّ عنك ما تكره؟

فقال: أنصفتَ. ثمَّ ركز حربته وجلس، فكلَّمه مُصعبٌ بالإسلام، وتلا عليه القرآن. قال: فوالله لعرفنا في وجهه الإسلام قبلَ أن يتكلَّم في إشراقه، وتهلُّله.

ثمَّ قال: ما أحسنَ هذا! وما أجملَه! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدِّين؟ قالا له: تغتسل وتُطهِّر ثوبك، ثمَّ تشهد شهادة الحقِّ، ثمَّ تُصلِّي ركعتين.

فقام واغتسل وطهَّر ثوبه، وتشهَّد وصلَّىٰ ركعتين، ثمَّ قال: إنَّ ورائي رجلًا إن تبعكما لم يتخلَّف عنه أحدٌ من قومه، وسأرشده إليكما الآنَ، هو سعد بن مُعاذٍ.

ثمَّ أخذ حربته وانصرف إلىٰ سعدٍ في قومه وهم جلوسٌ في ناديهم.

فقال سعدٌ: أحلف بالله، لقد جاءكم بغير الوجه الَّذي ذهب به من عندكم.

فلمَّا وقف علىٰ النَّادي، قال له سعدٌ: ما فعلتَ؟ فقال: كلَّمت الرَّجلين، فوالله ما رأيتُ بهما بأسًا، وقد نهيتُهما فقالا: نفعل ما أحببتَ.

وقد حُدِّثتُ: أنَّ بني حارثة خرجوا إلىٰ أسعد بن زُرارة ليقتلوه، وذلك أنَّهم عرفوا أنَّه ابن خالتك؛ ليُخْفِروك -أي: لينقضوا عهدك ويغدروا بك-.

فقام سعدٌ مُغضبًا للَّذي ذَكر له، فأخذ حربته، فلمَّا رآهما مُطمئنَّين عرف أنَّ أُسيدًا إنَّما أراد أن يسمع منهما، فوقف عليهما مُتشتِّمًا -من الشَّتم وهو السَّبُّ-، ثمَّ قال لأسعد بن زُرارة: والله يا أبا أُمامة، لولا ما بيني وبينَك من القَرابة ما رُمْتَ هذا منِّي، تغشانا في دارنا بما نكره؟!

فقال له مُصعبٌ: أو تقعد فتسمع، فإن رضيتَ أمرًا قبلته، وإن كرهتَه عزلنا عنك ما تكره؟ قال: قد أنصفتَ.

ثمَّ رَكز حربته فجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القُرآن، قال: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبلَ أن يتكلَّم في إشراقه وتَهلُّله.

ثمَّ قال: كيف تصنعون إذا أسلمتُم؟ قالا: تغتسل وتُطهِّر ثوبك، ثمَّ تشهد شهادة الحقِّ، ثمَّ تُصلِّي ركعتين. ففعل ذلك.

ثمَّ أخذ حربته فأقبل إلىٰ نادي قومه، فلمَّا رأوه قالوا: نحلف بالله، لقد رجع بغير الوجه الَّذي ذهب به.

فقال: يا بني عبد الأَشْهَل، كيف أمري فيكم؟ قالوا: سيِّدنا وابن سيِّدنا، وأفضلنا رأيًا، وأَيْمَننا نَقِيبةً -أي: أكثرنا نجاحًا في الفعال وفوزًا بالمطالب-.

قال: فإنَّ كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرامٌ حتَّىٰ تؤمنوا بالله ورسوله. فما أمسىٰ فيهم رجلٌ ولا امرأةٌ إلَّا أسلموا، إلَّا الأُصَيْرم؛ فإنَّه تأخَّر إسلامه إلىٰ يوم أُحدٍ، فأسلم وقاتل وقُتل، ولم يسجد لله سجدةً، فقال النَّبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**عمل قليلًا، وأُجِر كثيرًا**» [رواه البخاري (٢٨٠٨)، ومسلم (١٩٠٠) دون تسميته]، [وسُمِّي في رواية أحمد (٢٣٦٣٤)].

فأقام مُصعبٌ في منزل أسعد يدعو النَّاس إلىٰ الإسلام، حتَّىٰ لم يبقَ دارٌ من دُور الأنصار إلَّا وفيها رجالٌ ونساءٌ مسلمون، إلَّا أربعة دُورٍ.

فلمَّا كان من العام المُقبل وجاء موسم الحجِّ، قال من أسلم من الأنصار: حتَّىٰ متىٰ نترك رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يُطرد في جبال مكَّة ويُخاف؟! فخرجوا معَ مشركي قومهم حُجَّاجًا.

بيعة العَقَبة الثَّانية:

فلمَّا وصلوا مكَّة واعدُوا النبيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ العَقَبة من أواسط أيَّام التَّشريق للبيعة بعدَما انقضىٰ حجُّهم.

فقال له العبَّاس -وهو يومَئذٍ علىٰ دين قومه، ولكنَّه أحبَّ أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثَّق له-: ما أدري ما هؤلاء القوم الَّذين

جاؤوك؟ إنِّي ذو معرفةٍ بأهل يثرب. فلمَّا كان اللَّيل تسلَّلوا من رحالهم مُختفِين ومعَهم عبد الله بن عمرو بن حرامٍ -أبو جابرٍ- وهو مشركٌ، وكانوا يكاتمونه الأمر.

فقالوا: يا أبا جابرٍ، إنَّك شريفٌ من أشرافنا، وإنَّا نرغب بك أن تكون حطبًا للنَّار غدًا، قال: وما ذلك؟ فأخبروه الخبر، فأسلم وشهد العَقَبة وكان نقيبًا.

فلمَّا حضروا للموعد، قال العباس: يا معشر الخزرج إنَّ محمَّدًا منَّا حيث علمتُم، وقد منعناه من قومنا، وهو في منعةٍ في بلده، إلَّا أنه أبَىٰ إلَّا الانقطاع إليكم واللُّحوق بكم، فإن كنتم ترون أنَّكم وافون بما دعوتموه إليه ومانعوه ممَّن خالفه، فأنتم وما تحملتم، وإن كنتم ترون أنَّكم مسلموه وخاذلوه بعدَ خروجه إليكم، فمن الآنَ فدعوه، فإنَّه في عزٍّ ومنعةٍ.

قالوا: قد سمعنا ما قلتَ، فتكلَّم يا رسول الله، وخُذْ لنفسك ولربِّك ما شئت.فتكلَّم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وقال: «**أُبايعكم علىٰ أن تمنعوني إذا قدمتُ عليكم ممَّا تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، ولكم الجنَّة**».

فكان أوَّل مَن بايعه البَراء بن مَعْرُور، فقال: والَّذي بعثك بالحقِّ لنمنعنَّك ممَّا نمنع منه أُزُرَنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن أهل الحرب والحلقة.

فاعترضه أبو الهيثم بن التَّيِّهان، وقال: إنَّ بينَنا وبينَ النَّاس حِبالًا ونحن قاطعوها، فهل عسيتَ إن أظهرك الله أن ترجع إلىٰ قومك وتدعنا؟

فتبسَّم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ثمَّ قال: «**لا والله، بل الدَّمَ الدَّمَ والهَدْمَ الهَدْمَ، أنتم منِّي وأنا منكم، أُحارب مَن حاربتم، وأُسالم مَن سالمتم**». [رواه أحمد (١٥٧٩٨)].

فلمَّا قدموا يبايعونه، أخذ بيده أسعد بن زُرارة، فقال: رُويدًا يا أهل يثرب، إنَّا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلَّا ونحن نعلم أنَّه رسول الله، وإنَّ إخراجه اليومَ مفارقةٌ للعرب كافَّةً وقتلُ خياركم وأن تعضَّكم السُّيوف، فإمَّا أنتم تصبرون علىٰ ذلك، فخذوه وأجركم علىٰ الله، وإمَّا أنتم تخافون من أنفسكم خيفةً، فذَرُوه فهو أعذر لكم عندَ الله.

فقالوا: أَمِطْ عنَّا يدك، فوالله ما نذر هذه البيعة، ولا نستقيلها.

فقاموا إليه رجلًا رجلًا يأخذ منهم ويعطيهم بذلك الجنَّة، ثمَّ كثر اللَّغط، فقال العبَّاس علىٰ رِسلكم -أي: تمهلوا-، فإنَّ علينا عُيونًا.

ثمَّ قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أخرجوا إليَّ منكم اثني عشرَ نقيبًا كُفلاء علىٰ قومهم، ككفالة الحواريِّين لعيسىٰ ابن مريم، وأنا كفيلٌ علىٰ قومي**».

فكان **نقيب بني النَّجار**: أسعد بن زُرارة، **ونقيب بني سَلمة**: البَراء بن مَعْرُورٍ، وعبد الله بن عمرو بن حَرامٍ، **ونقيب بني ساعدة**: سعد بن عُبادة، والمُنذر بن عمرٍو، **ونقيب بني زُريقٍ**: رافع بن مالك بن عَجلان، **ونقيب بني الحارث بن الخزرج**: عبد الله بن رَواحة، وسعد بن الرَّبيع، **ونقيب القوافل**: عُبادة بن الصَّامت، **ونقيب الأوس**: أُسيد بن حُضير، وأبو الهيثم بن التَّيِّهان. **ونقيب بني عَوفٍ**: سعد بن خَيثمة.

وكان جميع أهل العقبة: سبعين رجلًا وامرأتين.

فلمَّا بايعوه صرخ الشَّيطان بأنفذ صوتٍ سُمِعَ قطُّ: يا أهل الأخاشب -أي: الجبال العظيمة الغليظة-، هل لكم في محمَّدٍ والصُّباة

-أي: الخارجون عن دينكم- معَه، قد اجتمعوا علىٰ حربكم؟! فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**هذا أَزَبُّ العَقَبة** -اسم شيطان كان بالعقبة -، **أما والله يا عدوَّ الله لأفرغنَّ لك**». [رواه أحمد (١٥٧٩٨)].

فقال العبَّاس بن عُبادة بن نَضلة: والَّذي بعثك بالحقِّ، إن شئتَ لنَمِيلنَّ علىٰ أهل مكَّة غدًا بأسيافنا.

فقال: لم نُؤمَرْ بذلك، ولكن ارجعوا إلىٰ رحالكم، فرجعوا.

فلمَّا أصبحوا غدت عليهم جِلَّة قريشٍ -أي: عظماؤهم-، فقالوا: إنَّه بلغنا أنَّكم جئتم صاحبنا البارحة تستخرجونه من بين أظهُرنا، وتبايعونه علىٰ حربنا، وإنَّه والله ما من حيٍّ من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بينَنا وبينَهم منكم.

فانبعث رجالٌ ممَّن لم يعلم يحلفون لهم بالله ما كان من هذا شيءٌ، والَّذين يشهدون ينظر بعضهم إلىٰ بعضٍ.

وجعل عبد الله بن أُبيٍّ ابن سَلُولٍ يقول: هذا باطلٌ، ما كان هذا، وما كان قومي ليفتاتوا عليَّ بمثل هذا، لو كنتُ بيثرب ما صنع قومي هذا حتَّىٰ يُؤامروني.

الهجرة إلىٰ المدينة:

وأذن رسولُ الله ﷺ للمسلمين في الهجرة إلىٰ المدينة، فبادروا إليها، وأوَّل من خرج أبو سَلمة بن عبد الأسد وزوجته أمُّ سَلمة، ولكنَّها حُبِست عنه سنةً، وحيلَ بينَها وبينَ ولدها، ثمَّ خرجت بعدُ هي وولدها إلىٰ المدينة.

ثمَّ خرجوا أَرْسالًا يتبع بعضهم بعضًا، ولم يبقَ منهم بمكَّة أحدٌ إلَّا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعليٌّ رضي الله عنهما، أقاما بأمر رسول الله ﷺ لهما، وكذلك بقي مَن احتبسه المشركون كُرهًا.

وأعدَّ رسول الله ﷺ جهازَه ينتظر متىٰ يُؤمَر بالخروج، وأعدَّ أبو بكرٍ رضي الله عنه جهازه.

السَّنة الثَّالثةَ عشرةَ من البَعثة

تآمر قريشٍ بدار النَّدوة علىٰ قتل رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ :

لمَّا رأىٰ المشركون أصحابَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قد تجهَّزوا وخرجوا بأهليهم إلىٰ المدينة، عرفوا أنَّ الدَّارَ دارُ مَنعةٍ، وأنَّ القوم أهل حلقةٍ وبأسٍ، فخافوا خروج رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ فيشتدَّ أمره عليهم.

فاجتمعوا في دار النَّدوة، وحضرهم إبليس في صورة شيخٍ من أهل نجدٍ، فتذاكروا رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فأشار كلٌّ منهم برأيٍ، والشَّيخ يردُّه ولا يرضاه.

إلىٰ أن قال أبو جهلٍ: قد فُرِق لي فيه برأيٍ ما أراكم وقعتم عليه. قالوا: ما هو؟ قال: أرىٰ أن نأخذ من كلِّ قبيلةٍ من قريشٍ غلامًا جَلدًا، ثمَّ نُعطيه سيفًا صارمًا، ثمَّ يضربونه ضربةَ رجلٍ واحدٍ فيتفرَّق دمُه في القبائل، فلا تدري بنو عبد منافٍ بعدَ ذلك ما تصنعُ، ولا يُمكنها معاداة القبائل كلِّها، ونسوق دِيتَه.

فقال الشَّيخ: لله دَرُّ هذا الفتىٰ! هذا والله الرَّأي! فتفرَّقوا علىٰ ذلك.

فجاء جبريل فأخبر النَّبيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بذلك، وأمره ألَّا ينام في مضجعه تلك اللَّيلة، وجاء رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إلىٰ أبي بكرٍ نصفَ النَّهار مُتقنِّعًا في ساعةٍ لم يكُن يأتيه فيها، فقال: «**أَخرج مَن عندَك**». فقال: إنَّما هم أهلك يا رسول الله.

فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إنَّ الله قد أَذِن لي في الخروج**». فقال أبو بكرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: الصُّحبة يا رسول الله؟ قال: «**نعم**». فقال أبو بكرٍ: فخُذ -بأبي أنت وأمي- إحدىٰ راحلتيَّ هاتين. فقال: «**بالثَّمَن**». [رواه البخاري (٢١٣٨)].

وأمر عليًّا أن يبيت تلك اللَّيلة علىٰ فراشه.

واجتمع أولئك النَّفر يتطلَّعون من صير الباب، ويرصدونه.

فخرج رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عليهم، فأخذ حَفنةً من البطحاء فذرَّها علىٰ رؤوسهم وهو يتلو: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ [يس: ٩]، وأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ

﴿يُخۡرِجُوكَ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ومضىٰ رسول الله ﷺ إلىٰ بيت أبي بكرٍ رضي الله عنه، فخرجا من خَوْخَةٍ -أي: خَرق في جدار، أو باب صغير وسط باب كبير- في بيت أبي بكر ليلًا.

فجاء رجلٌ فرأىٰ القوم ببابه، فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمَّدًا. قال: خبتم وخسرتم! قد والله مرَّ بكم، وذَرَّ علىٰ رؤوسكم التُّراب! قالوا: والله ما أبصرناه! وقاموا ينفضون التُّراب عن رؤوسهم.

فلمَّا أصبحوا: قام عليٌّ رضي الله عنه عن الفراش، فسألوه عن محمَّدٍ. فقال: لا علم لي به. ومضىٰ رسول الله ﷺ وأبو بكرٍ رضي الله عنه إلىٰ غار ثَورٍ، فنسجت العنكبوت علىٰ بابه.

وكانا قد استأجرا عبد الله بن أُرَيْقِطٍ اللَّيثيَّ، وكان هاديًا ماهرًا، وكان علىٰ دين قومه، وأَمِناه علىٰ ذلك وسلَّما إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثَورٍ بعدَ ثلاثٍ.

وجَدَّت قريشٌ في طلبهما، وأخذوا معَهم القافة حتَّىٰ انتهَوا إلىٰ باب الغار فوقفوا عليه، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، لو أنَّ أحدَهم نظر إلىٰ ما تحت قدمَيْه لأبصرنا!

فقال: «**ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما؟! لا تحزن إنَّ الله معنا**». [رواه البخاري (٣٦٥٣) ومسلم (٢٣٨١)]، وكانا يسمعان كلامَهم، إلَّا أنَّ الله عمَّىٰ عليهم أمرَهما.

وكان عامر بن فُهَيْرة يرعىٰ غنمًا لأبي بكرٍ ويتسمَّع ما يُقال عنهما بمكَّة، ثمَّ يأتيهما بالخبر ليلًا، فإذا كان السَّحَر سرح معَ النَّاس.

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فجهَّزناهما أحثَّ الجهاز، وصنعنا لهما سُفرةً في جرابٍ، فقطعت أسماء بنت أبي بكرٍ قطعةً من نطاقها، فأَوْكَت به فم الجراب، وقطعت الأُخرىٰ عصامًا للقِربة؛ فبذلك لُقِّبت: ذات النِّطاقينِ.

ومكثا في الغار ثلاثًا حتَّىٰ خمدت نار الطَّلب، فجاءهما ابنُ أُريقطٍ بالرَّاحلتينِ فارتحلا، وأردف أبو بكرٍ عامر بن فُهيرةَ.

قصَّة سُراقَة بن مالكٍ:

لمَّا أيِسَ المشركون منهما، جعلوا لمَن جاء فيهما دِيةَ كلِّ واحدٍ منهما، لمَن يأتي بهما أو بأحدهما، فجَدَّ النَّاس في الطَّلب، والله غالبٌ علىٰ أمره.

فلمَّا مرُّوا بحيٍّ من مُدْلجٍ مُصعِدين من قُدَيْدٍ، بصر بهم رجلٌ

فوقف علىٰ الحيِّ، فقال: لقد رأيت آنفًا بالسَّاحل أَسْوِدةً، وما أراها إلَّا محمَّدًا وأصحابه.

ففطِنَ بالأمر سُراقة بن مالكٍ، فأراد أن يكون الظَّفر له، فقال: بل هما فلانٌ وفلانٌ خرجا في طلب حاجةٍ لهما، ثمَّ مكث قليلًا، ثمَّ قام فدخل خِباءه، وقال لجاريته: أخرجي الفرس من وراء الخباء، وموعدك وراءَ الأَكَمَة -أي: التل-. ثمَّ أخذ رمحه، وركب فرسه.

فلمَّا قرب منهم، وسمع قراءة النَّبيِّ ﷺ وأبو بكر يكثر الالتفات ورسول الله ﷺ لا يلتفت، قال أبو بكرٍ رضي الله عنه: يا رسول الله، هذا سُراقة بن مالكٍ قد رهقنا؟ فدعا عليه رسول الله ﷺ فساخت يدا فرسه في الأرض.

فقال: قد علمتُ أنَّ الَّذي أصابني بدعائكما، فادعوا الله لي، ولكما أن أردَّ النَّاس عنكما. فدعا له رسول الله ﷺ فخلصت يدا فرسه، فانطلق.

وسأل رسول الله ﷺ أن يكتب له كتابًا، فكتب له أبو بكرٍ بأمره في أديمٍ، وكان الكتاب معَه إلىٰ يوم فتح مكَّة، فجاء به فوفَّىٰ له رسول الله ﷺ.

فرجع فوجد النَّاس في الطَّلب، فجعل يقول: قد استبرأت لكم الخبر، وقد كُفيتم ما ها هنا، فكان أوَّل النَّهار جاهدًا عليهما، وكان آخرَه حارسًا لهما.

قصَّة أمِّ مَعْبَدٍ:

ثمَّ مرُّوا بخيمة أمِّ مَعبدٍ الخُزاعيَّة، وكانت امرأةً بَرْزَةً جَلدةً تحتبي بفناء الخيمة، ثمَّ تُطعِم وتسقي مَن مرَّ بها، فسألاها: هل عندَها شيءٌ يشترونه؟

فقالت: والله لو عندَنا شيءٌ ما أعوزكم القِرىٰ! -وكانت سنةً شهباء، أي: فيها قحطٌ وجفافٌ-، فنظر رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلىٰ شاةٍ في كِسر الخيمة، فقال: «**ما هذه الشَّاة؟**» قالت: خلَّفها الجَهْد عن الغنم. فقال «**هل بها من لبنٍ؟**» قالت: هي أجهد من ذلك. قال: «**أتأذنين لي أن أحلبها؟**» قالت: نعم إن رأيتَ بها حليبًا فاحلبها.

فمسح رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بيده ضَرْعَها، وسمَّىٰ الله ودعا، فتَفاجَّت عليه -أي: فرجت مَا بَين رِجْلَيْهَا- ودَرَّت، فدعا بإناءٍ لها فحلب فيه، فسقاها فشربت حتَّىٰ رويت، وسقىٰ أصحابه حتَّىٰ

رووا، ثمَّ شرب هو، وحلب فيه ثانيًا فملأ الإناء، ثمَّ غادره عندَها وارتحلوا.

فقَلَّ ما لبثت حتَّىٰ جاء زوجها يسوق أعنزًا عِجافًا، فلمَّا رأىٰ اللَّبن قال: من أين هذا والشَّاء عازبٌ، ولا حَلُوبة في البيت؟

قالت: لا والله، إلَّا أنَّه مرَّ بنا رجلٌ مباركٌ، من حديثه كَيْتَ وكَيْتَ، قال: والله، إنِّي لأراه صاحب قريشٍ الَّذي تطلبه، صفيه لي يا أمَّ معبدٍ.

فقالت: ظاهر الوَضَاءة، أَبْلَج الوجه -أي: وجهه مضيء مشرق-، حَسن الخَلق، لم تَعِبه ثَجْلَةٌ -الثجلة: عظم البطن-، ولم تُزْرِ به صَعْلَةٌ -الصعلة: صغر الرأس-، وسيمٌ قسيمٌ -حسنه واضح-، في عينيه دَعَجٌ -الدعج شدة سواد سواد العين-، وفي أَشْفاره وَطَفٌ -الوطف طول أشفار العين-، وفي صوته صَهَلٌ -الصَّهَلُ: حِدَّةُ الصَّوْتِ مَعَ بَحَّة-، وفي عُنقه سَطَعٌ -أي إشراف وطول-، وفي لحيته كَثَاثَةٌ -الكثاثة دقة نبات شعر اللحية مع استدارة فيها-، أَحْوَرُ -عيناه مستديرتان واسعتان، سوادهما شديد، كما بياضها شديد- أَكْحَلُ -يعلو منابت جفونه سواد كأنَّه يضع الكُحْل- أَزَجُّ -الزجج: دقة شعر الحاجبين مع طولهما- أَقْرَن -القرن أن يتصل ما بين الحاجبين بالشعر-، شديد سواد الشَّعر، إذا صمت علاه الوقار، وإذا

تكلَّم علاه البَهاء -البهاء هنا: حسن الظاهر-، أجمل النَّاس وأبهاه من بعيدٍ، وأحسنه وأحلاه من قريبٍ، حلو المنطق، فصلٌ: لا نذرٌ ولا هذرٌ -الفصل الكلام البين، والنزر الكلام القليل والهذر الكلام الكثير، وأرادت أن كلامه ليس بقليل فينسب إلىٰ العجز ولا بكثير فينسب إلىٰ التزيد-، كأنَّ منطقه خرزات نَظمٍ يتحدَّرن، رَبْعَةٌ -أي: وسيط القامة-: لا تقتحمه -أي: لا تحتقره- عين من قِصرٍ ولا تَشْنَؤه -أي: لا تبغضه- من طولٍ، غُصنٌ بينَ غُصنين، فهو أنضر الثَّلاثة منظرًا وأحسنهم قدرًا، له رفقاء يحفُّون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا إلىٰ أمره، مَحْفُودٌ -أي: مخدوم- مَحشُودٌ -أي: محفوف به-، لا عابسٌ -أي: ليس كالح الوجه من عبوسه- ولا مُفَنَّدٌ -أي: ليس منسوبًا إلىٰ جهل، أو قلة عقل-.

قال أبو معبدٍ: هذا والله صاحب قريشٍ الَّذي تطلبه، ولقد هممتُ أن أصحبه ولأفعلنَّ إن وجدتُ إلىٰ ذلك سبيلًا.

قالت أسماء بنتُ أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ولمَّا خرج أبو بكرٍ احتمل معَه ماله، فدخل علينا جدِّي أبو قُحَافَة -وقد ذهب بصره- فقال: إنِّي والله لأراه قد فجعكم بماله معَ نفسه!

قلتُ: كلا والله، قد ترك لنا خيرًا. وأخذت حجارةً فوضعتها في كُوَّة البيت -الْخرق فِي الْجِدَار، يدْخل مِنْهُ الْهَوَاء والضوء-، وقلت:

ضع يدك علىٰ المال. فوضعها، وقال: لا بأس، إن كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن، قالت: والله ما ترك لنا شيئًا، وإنَّما أردت أن أُسكِتَ الشَّيخ.

دخول رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ المدينة:

ولمَّا بلغ الأنصارَ مخرجُ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من مكَّة، كانوا يخرجون كلَّ يومٍ إلىٰ الحَرَّة -أرض ذَات حِجَارَة سود كَأَنَّهَا أحرقت- ينتظرونه، فإذا اشتدَّ حرُّ الشَّمس رجعوا إلىٰ منازلهم.

فلمَّا كان يوم الاثنين ثاني عشرَ ربيعٍ الأوَّل، علىٰ رأس ثلاثَ عشرةَ سنةً من نبوَّته، خرجوا علىٰ عادتهم، فلما حَمِيَت الشَّمس رجعوا، فصعِد رجلٌ من اليهود علىٰ أُطُمٍ من آطام المدينة، فرأىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه مُبيَّضين -أي: عليهم الثياب البِيض- يزول بهم السَّراب، فصرخ بأعلىٰ صوته: يا بني قَيْلَةَ هذا صاحبكم قد جاء، هذا جَدُّكم -أي: حظُّكم وصاحب دولتكم- الَّذي تنتظرونه.

فثار الأنصار إلىٰ السَّلاح ليتلقَّوا رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وكبَّر المسلمون فرحًا بقدومه، وخرجوا للقائه، فتلقَّوه وحيَّوه بتحيَّة النُّبوَّة، وأحدقوا به مُطيفين حولَه.

فلمَّا أتىٰ المدينةَ عدلَ ذاتَ اليمين حتَّىٰ نزل بقُباءٍ في بني عمرو بن عوفٍ، ونزل علىٰ كُلثوم بن الهَدْم -أو علىٰ سعد بن خَيْثَمة-، فأقام في بني عمرو بن عوفٍ أربعَ عشرةَ ليلةً، وأسَّس مسجد قُباءٍ، وهو أوَّل مسجدٍ أُسِّس بعدَ النُّبوَّة.

فلمَّا كان يوم الجمعة ركب، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوفٍ، فجمَّع بهم في المسجد الَّذي في بطن الوادي.

ثمَّ ركب، فأخذوا بخِطام راحلته يقولون: هَلُمَّ إلىٰ القوَّة والمَنَعَة والسِّلاح. فيقول: «**خلُّوا سبيلها؛ فإنَّها مأمورةٌ**». فلم تزل ناقته سائرةً لا يمرُّ بدارٍ من دور الأنصار إلَّا رغبوا إليه في النُّزول عليهم، فيقول: «**دعوها فإنَّها مأمورةٌ**».

فسارت حتَّىٰ وصلت إلىٰ موضع مسجده اليوم فبركت، وذلك في بني النَّجَّار أخواله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

قال البَراء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أوَّل من قدم علينا: مُصعَب بن عُميرٍ، وابنُ أمِّ مَكْتُومٍ، فجعلا يُقرئان النَّاس القرآن، ثمَّ جاء عمَّار بن ياسرٍ، وبلالٌ، وسعدٌ، ثمَّ جاء عمر بن الخطَّاب في عشرين راكبًا، ثمَّ جاء رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فما رأيت النَّاس فرحوا بشيءٍ فرحهم

به، حتَّىٰ جعل النِّساء، والصِّبيان، والإماء يقُلن: قدم رسول الله! جاء رسول الله ﷺ!

وقال أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شهدته يوم دخل المدينة ﷺ فما رأيت يومًا قطُّ كان أحسن ولا أَضْوَأ من اليوم الَّذي دخل المدينة علينا، وشهدته يوم مات ﷺ، فما رأيت يومًا قطُّ كان أقبح ولا أظلم من يوم مات.

فأقام في بيت أبي أيُّوبٍ حتَّىٰ بنىٰ حُجَره ومسجدَه.

وبعث رسول الله ﷺ -وهو في منزل أبي أيُّوبٍ- زيد بن حارثة وأبا رافعٍ، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهمٍ إلىٰ مكَّة، فقدما عليه بفاطمة وأمِّ كُلثومٍ ابنتَيْه، وسَوْدَةَ بنت زَمْعَة زوجه، وأسامة بن زيدٍ، وأمِّ أيمن.

وأمَّا زينب فلم يُمكِّنها زوجُها أبو العاص بن الرَّبيع من الخروج.

وخرج عبد الله بن أبي بكرٍ بعيال أبي بكرٍ وفيهم عائشة.

السَّنة الأُولى من الهجرة

بناء المسجد:

بَرَكَت ناقة رسول الله ﷺ عندَ موضع مسجده، وكان مِرْبَدًا -أي: أرض يجفف فيها التمر- لسهلٍ وسُهيلٍ غلامين يتيمين من الأنصار، كانا في حِجر أسعد بن زُرارة.

فساوم رسول الله ﷺ الغلامين بالمِربَد ليتَّخذه مسجدًا، فقالا: بل نَهبُه لك يا رسول الله. فأبىٰ رسول الله ﷺ فاشتراه منهما بعشرة دنانير، وفي الصَّحيح أنَّه قال: «**يا بني النَّجَّار، ثامنوني بحائطكم**». قالوا: لا والله، لا نطلب ثمنه إلَّا إلىٰ الله.

وكان فيه شجر غَرْقَدٍ ونخلٌ وقبورٌ للمشركين، فأمر رسول الله ﷺ بالقبور فنُبِشت، وبالنَّخيل والشَّجر فقُطع، وصُفَّت في قِبلة المسجد. [رواه البخاري (٤٢٨)، ومسلم (٥٢٤)].

وجعل طولَه ممَّا يلي القِبلة إلىٰ مؤخَّره مائة ذراعٍ، وفي الجانبين مثل ذلك أو دونه، وأساسه قريبًا من ثلاثة أذرعٍ، ثمَّ

بنوه باللَّبِن، وجعل رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يبني معَهم وينقُل اللَّبِن والحجارة بنفسه، ويقول:

اللَّهمَّ إنَّ العيش عيشُ الآخرةْ فاغفر للأنصـــار والمُهاجرةْ

وكان يقول:

هذا الحِمـــالُ لا حمالُ خَيْبَرْ هـــذا أبـــرُّ ربَّنـــا وأطهـــرْ

وجعلوا يرتجزون، ويقول أحدهم في رَجَزه:

لئن قعدنا والرَّســـولُ يعملُ لـــذاك منَّا العمـــل المُضلَّلُ

وجعل قِبلته إلىٰ بيت المقدس، وجعل له ثلاثة أبوابٍ، وجعل عُمُدَه الجُذوعَ، وسقفه الجريد.

وبنىٰ بيوت نسائه إلىٰ جانبيه، بُنيت بالحَجَر واللَّبِن، وسقَّفَها بالجذوع والجريد.

بناؤه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعائشة:

لمَّا فرغ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من بناء المسجد بنىٰ بعائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا في البيت الَّذي بناه لها شرقيَّ المسجد، وكان بناؤه بها في شوَّالٍ من السَّنة الأُولىٰ.

وكان بعض النَّاس يكره البِناء في شوَّالٍ.

المؤاخاة بينَ المهاجرين والأنصار:

آخىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينَ المهاجرين والأنصار صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانوا تسعين رجلًا: نصفهم من المهاجرين، ونصفهم من الأنصار.

آخىٰ بينَهم علىٰ المواساة، وعلىٰ أن يتوارثوا بعدَ الموت دونَ ذوي الأرحام، فلمَّا أنزل الله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]، ردَّ التَّوارث إلىٰ الأرحام.

وفي الصحيح عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة وهي وَبِيئَةٌ -أي: تكثر فيها الأمراض-، فمرض أبو بكرٍ، وكان يقول إذا أخذته الحُمَّىٰ:

كلُّ امــرئٍ مُصبَّــحٌ في أهلــهِ
والمــوتُ أدنَــىٰ من شِــراك نعلهِ

وكان بلالٌ إذا أقلعت عنه الحُمَّىٰ يرفع عَقِيرتَه -أَي: صَوته- ويقول:

أَلا ليــتَ شــعري، هل أبيتــنَّ ليلةً
بــوادٍ وحولــي إِذْخِــرٌ وجليلُ؟!

وهـــل أَرِدَنْ يومًـــا ميـــاهَ مَجِنَّةٍ؟!

وهل يبـــدُون لي شـــامةٌ وطفيلُ؟!

اللَّهمَّ العن عُتبة بن ربيعة، وأُميَّة بن خلفٍ، وشَيبة بن ربيعة، كما أخرجونا من أرضنا إلىٰ أرض الوباء.

فأخبرتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**اللَّهمَّ حبِّب إلينا المدينة كحبِّنا مكَّة أو أشدَّ، اللَّهمَّ صحِّحها، وبارك لنا في صاعها ومُدِّها، وانقُل حُمَّاها إلىٰ الجُحْفة**». [رواه البخاري (١٨٨٩)، ومسلم (١٣٧٦)].

حوادث السَّنة الأُولى

في السَّنة الأُولىٰ: زِيد في صلاة الحضر ركعتان، فصارت أربعَ ركعاتٍ.

وفيها: نزل أهل الصُّفَّة المسجد، وكانت مكانًا في المسجد ينزل فيه فقراء المهاجرين الَّذين لا أهل لهم ولا مال، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُفرِّقهم في أصحابه إذا جاء اللَّيل، ويتعشَّىٰ طائفةٌ منهم معَه، حتَّىٰ جاء الله بالغِنىٰ.

وهذه السَّنة الرَّابعةَ عشرةَ من النُّبوَّة هي الأُولىٰ من الهجرة، ومنها أُرِّخ التَّاريخ.

وتُوفِّي فيها من الأعيان: أسعد بن زُرارة قبلَ أن يفرغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بناء المسجد.

وتُوفِّيَ البَراء بن مَعْرُورٍ في صفرٍ قبلَ قدوم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة، وهو أوَّل مَن مات من النُّقباء.

وفيها: تُوفِّي ضَمْرَة بن جُندُبٍ، وكان قد مرض بمكَّة، فقال لبنيه: اخرجوا بي منها. فخرجوا به يريد الهجرة، فلمَّا بلغ أَضَاةَ

بني غفارٍ أو التَّنعيم مات. فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠] الآية.

وتُوفِّي كُلثُوم بن الهَدْم.

وفيها: وادعَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بالمدينة من اليهود، وكتب بينَه وبينَهم كتابًا.

وفيها: أسلم عبد الله بن سَلامٍ عالم اليهود وحبرهم، وأَبَىٰ عامَّتُهم إلَّا الكفر، وكانوا ثلاث قبائل: قَيْنُقَاع، والنَّضِير، وقُرَيْظَة.

حوادث السَّنة الثَّانية

فيها: رأىٰ عبدُ الله بن زيد بن عبد ربِّه الأذان في رؤيا، فأمره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُلقيه علىٰ بلالٍ.

وفيها: فُرِضَ صوم رمضان، ونُسِخَ صوم عاشوراء، وبقي صومه مستحبًّا.

وفيها: زوَّج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليًّا فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وفيها: صرف الله عَزَّوَجَلَّ القِبلة عن بيت المقدس إلىٰ الكعبة، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا قدم المدينة استقبل بيت المقدس ستَّةَ عشَرَ شهرًا، قِبلة اليهود، وكان يُحبُّ أن يصرفه الله إلىٰ الكعبة، وكان يُقلِّب وجهه في السَّماء يرجو ذلك، حتَّىٰ أنزل الله عليه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤] الآيات.

وكان في ذلك حكمةٌ عظيمةٌ، ومِحْنةٌ للنَّاس مسلمهم وكافرهم:

فأمَّا المسلمون، فقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، وهم الَّذين هدىٰ الله، ولم تكُن بكبيرةٍ عليهم.

وأمَّا المشركون، فقالوا: كما رجع إلىٰ قِبلتنا يوشك أن يرجع إلىٰ ديننا.

وأمَّا اليهود، فقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَا﴾ [البقرة: ١٤٢].

وأمَّا المنافقون، فقالوا: إن كانت القِبلة الأُولىٰ حقًّا فقد تركها، وإن كانت الثَّانية هي الحقَّ فقد كان علىٰ باطلٍ.

استِقرار الرَّسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بالمدينة:

لمَّا استقرَّ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في المدينة، وأيَّده الله بنصره وبالمؤمنين، وألَّف بينَ قلوبهم بعدَ العداوة، ومنعته أنصار الله من الأحمر والأسود؛ رمتهم العرب واليهود عن قوسٍ واحدةٍ، وشمَّروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة.

والله يأمر رسوله والمؤمنين بالكفِّ والعفو والصَّفح، حتَّىٰ قويت الشَّوكة، فحينَئذٍ أذن لهم في القتال ولم يفرضه

عليهم، فقال تعالىٰ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، وهي أوَّل آيةٍ نزلت في القتال.

ثمَّ فُرض عليهم قتالُ مَن قاتلهم، فقال تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠] الآية.

ثمَّ فُرض عليهم قتالُ المشركينَ كافَّةً، فقال تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] الآية.

أوَّل لواءٍ عقده رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

أوَّل لواءٍ عَقدَه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لواءُ حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في شهر رمضان في السَّنة الأُولىٰ، فبَعثَه في ثلاثين رجلًا من المهاجرين خاصَّةً يعترض عِيرًا لقريشٍ جاءت من الشَّام، فيها أبو جهلٍ في ثلاثمائة رجلٍ، حتَّىٰ بلغوا سيف البحر من ناحية العِيص.

فالتقوا واصطفوا للقتال، فحجز بينَهم مجديُّ بن عمرٍو الجُهنيُّ -وكان مُوادِعًا للفريقين- فلم يقتتلوا.

سريَّة عُبيدة بن الحارث:

ثمَّ بعث ﷺ عُبيدة بن الحارث بن عبد المطَّلب رضي الله عنه في شوَّالٍ في سريَّةٍ إلىٰ بطن رابغٍ، في ستِّين رجلًا من المهاجرين خاصَّةً.

فلقي أبا سُفيان عندَ رابغٍ، فكان بينَهم الرَّمي ولم يسلُّوا السُّيوف، وإنَّما كانت مناوشةٌ، وكان سعد بن أبي وقَّاصٍ أوَّلَ مَن رمىٰ بسهمٍ في سبيل الله، ثمَّ انصرف الفريقان.

سريَّة سعد بن أبي وقَّاصٍ:

ثمَّ بعث ﷺ سعد بن أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه في ذي القعدة إلىٰ الخَرَّار من أرض الحجاز، يعترضون عِيرًا لقريشٍ، وعهد إليه ألَّا يُجاوز الخرَّار، وكانوا عشرين.

فخرجوا علىٰ أقدامهم يسيرون باللَّيل ويكمنون بالنَّهار، حتَّىٰ بلغوا الخَرَّار، فوجدوا العِير قد مرَّت بالأمس.

غزوة الأَبْوَاء:

كانت هي أوَّل غزوةٍ غزاها رسول الله ﷺ بنفسه.

خرج في المهاجرين خاصَّةً يعترض عِيرًا لقريشٍ، فلم يلقَ كيدًا، وفيها وادع بني ضَمْرَة علىٰ ألَّا يغزوهم ولا يغزوه، ولا يُعينوا عليه أحدًا.

غزوة بُوَاطٍ:

ثمَّ غزا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بُوَاطًا في ربيعٍ الأوَّل، خرج يعترض عِيرًا لقريشٍ فيها أُميَّةُ بن خَلفٍ ومائة رجلٍ من المشركين.

فبلغ بُواطًا -جبلًا من جبال جُهينة- فرجع ولم يلقَ كيدًا.

خروجُه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لطلب كُرْز بن جابرٍ:

ثمَّ خرج صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في طلب كُرْز بن جابرٍ الفِهْرِيِّ، وكان قد أغار علىٰ سَرْح المدينة فاستاقه.

فخرج رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في أَثَره حتَّىٰ بلغ ناحية بَدْرٍ وفاته كُرزٌ.

غزوة العَشيرة:

ثمَّ خرج صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في جُمادَىٰ الآخِرة في مائةٍ وخمسين من المهاجرين يعترضون عِيرًا لقريشٍ ذاهبةً إلىٰ الشَّام.

وخرج في ثلاثين بعيرًا يتعاقبونها، فبلغ ذا العَشيرة من ناحية يَنْبُع، فوجد العِير فاتته بأيَّامٍ.

وهي الَّتي خرجوا لها يوم بدرٍ لمَّا جاءت عائدةً من الشَّام.

وفيها: وادع بني مُدْلجٍ وحُلفاءهم.

بَعْث عبد الله بن جَحشٍ:

ثمَّ بعث عبد الله بن جَحشٍ إلىٰ نخلةَ في رجبٍ في اثني عشرَ رجلًا من المهاجرين، كلُّ اثنين علىٰ بعِيرٍ، فوصلوا إلىٰ نخلة يرصدون عِيرًا لقريشٍ.

وكان رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قد كتب له كتابًا، وأمره ألَّا ينظر فيه حتَّىٰ يسير يومين، فلمَّا فتح الكتاب إذا فيه: «**إذا نظرت في كتابي هذا، فامضِ حتَّىٰ تنزل بنخلة بينَ مكَّة والطَّائف، فترصد قريشًا، وتعلم لنا أخبارها**».

فأخبر أصحابه بذلك، وأخبرهم أنه لا يستكرههم، فقالوا: سمعًا وطاعةً.

فلمَّا كان في أثناء الطَّريق أضلَّ سعد بن أبي وقَّاصٍ وعُتبة بن غَزوان بعيرَهما، فتخلَّفا في طلبه.

ومضىٰ عبد الله ومَن معَه حتَّىٰ نزلوا نخلة، فمرَّت بهم عِير قريشٍ تحمل زبيبًا وتجارةً، فيها عمرو بن الحَضْرَميِّ.

فقال المسلمون: نحن في آخر يوم من رجبٍ، فإن قاتلناهم انتهكنا الشَّهر الحرام، وإن تركناهم اللَّيلة دخلوا الحَرَم!

ثمَّ أجمعوا علىٰ مُلاقاتهم، فرمىٰ أحدُهم عمرَو بن الحضرميِّ فقتله، وأسروا عُثمان والحَكم.

ثمَّ قدموا بالعِير والأسيرين حتَّىٰ عزلوا من ذلك الخُمُس، فكان أوَّل خمسٍ في الإسلام، وأوَّل قتلٍ في الإسلام، وأوَّل أسرٍ.

فأنكر رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ما فعلوه.

واشتدَّ إنكار قريشٍ لذلك، فقالوا: قد أحلَّ محمَّدٌ الشَّهرَ الحرام.

واشتدَّ علىٰ المسلمين ذلك، حتَّىٰ أنزل الله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧] الآية، فردَّ الله عليهم بأنَّ الَّذي أنكرتموه -وإن كان كبيرًا- فما ارتكبتموه وترتكبونه من الكفر بالله والصَّدِّ عن

سبيله وبيته وإخراج المسلمين منه أكبرُ عند الله، فالفتنة -وهي الشِّرك- أكبر عندَ الله.

وقعة بَدْرٍ الكُبرىٰ يومُ الفُرقان:

لمَّا كان رمضانُ بلغ رسولَ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خبرُ العِير المُقبلة من الشَّام معَ أبي سُفيان فيها أموال قريشٍ، فنَدبَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ للخروج إليها، فخرج مُسرعًا في ثلاثمائةٍ وبضعةَ عشرَ رجلًا.

ولم يكُن معَهم من الخيل إلَّا فرسان: فرسٌ للزُّبَير، وفرسٌ للمِقداد بن الأسود، وكان معَهم سبعون بعِيرًا، يعتقب الرَّجلان والثَّلاثة علىٰ بعِيرٍ.

واستخلف علىٰ المدينة عبدَ الله بن أمِّ مَكْتُومٍ، فلمَّا كان بالرَّوْحاء ردَّ أبا لُبابَةَ واستعمله علىٰ المدينة.

ودفع اللِّواء إلىٰ مصعب بن عُميرٍ، والرَّاية إلىٰ عليٍّ، وراية الأنصار إلىٰ سعد بن مُعاذٍ.

ولمَّا قرب من الصَّفراء: بعث بَسْبَسَ بن عمرٍو وعَديَّ بن أبي الزَّغْبَاء يتحسَّسان أخبار العِير.

وبلغ أبا سُفيان مخرجَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فاستأجر ضَمْضَمَ بن عمرٍو الغِفاريَّ، وبعثه حثيثًا -أي: سريعًا- إلىٰ مكَّة مُستصرخًا قريشًا -أي: متسنجدًا بهم- بالنَّفير إلىٰ عِيرهم.

فنهضوا مُسرعين، ولم يتخلَّف من أشرافهم سوىٰ أبي لهبٍ؛ فإنه عوَّض عنه رجلًا بجُعلٍ.

وحشدوا فيمَن حولَهم من قبائل العرب، ولم يتخلَّف عنهم من بطون قريشٍ إلَّا بني عَديٍّ، فلم يشهدها منهم أحدٌ.

وخرجوا من ديارهم كما قال تعالىٰ: ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧]. -بطرًا: أي: دفعًا للحَقِّ، وفَخرًا وبَغيًا، وَرِئَاءَ النَّاسِ: أي: ليَراهم النَّاسُ، ومُفاخرةً-.

ولمَّا بلغ رسولَ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خروجُ قريشٍ استشار أصحابه، فتكلَّم المهاجرون فأحسنوا، ثمَّ استشارهم ثانيًا، فتكلَّم المهاجرون، ثمَّ ثالثًا.

فعلمت الأنصار أنَّ رسول الله إنَّما يعنيهم.

فقال سعد بن مُعاذٍ: كأنَّك تُعرِّض بنا يا رسول الله! -وكان إنَّما يعنيهم لأنَّهم بايعوه علىٰ أن يمنعوه في ديارهم- وكأنَّك تخشىٰ أن تكون الأنصار ترىٰ عليهم ألَّا ينصروك إلَّا في ديارهم!

وإنِّي أقول عن الأنصار وأُجيب عنهم، فامضِ بنا حيثُ شئت، وصِل حَبْل مَن شئت، واقطع حَبل مَن شئت، وخُذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذتَ منها كان أحبَّ إلينا ممَّا تركتَ، فوالله، لئن سرتَ بنا حتَّىٰ تبلغ البَرْك من غُمدان -مَوضِع في أقاصي هجر، وقيل: في طرف اليمن- لنسيرنَّ معَك، ووالله، لئن استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك.

وقال المقداد بن الأسود: إذن لا نقول كما قال قوم موسىٰ لموسىٰ: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن نقاتل من بين يديك ومن خلفك، وعن يمينك وعن شمالك.

فأشرق وجه رسول الله ﷺ بما سمع منهم، وقال: «**سيروا وأبشروا؛ فإنَّ الله وعدني إحدىٰ الطَّائفتين، وإنِّي قد رأيت مصارع القوم**».

وكره بعض الصَّحابة لقاء النَّفير، وقالوا: لم نستعدَّ لهم، فهو قوله تعالىٰ: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال: ٥-٦] إلىٰ قوله: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨].

وسار رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلىٰ بدرٍ، وخفض أبو سُفيان فلحق بساحل البحر، وكتب إلىٰ قريشٍ أن ارجعوا؛ فإنَّكم إنَّما خرجتم لتُحرِزوا عِيركم. فأتاهم الخبر، فهمُّوا بالرُّجوع.

فقال أبو جهلٍ: والله لا نرجع حتَّىٰ نقدم بدرًا فنقيم بها، نطعم من حضرنا، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القِيان -أي: الإماء المغنيات-، وتسمع بنا العرب فلا تزال تهابنا أبدًا وتخافنا.

فأشار الأَخْنَس بن شُريقٍ عليهم بالرُّجوع، فلم يفعلوا، فرجع هو وبنو زُهرة، فلم يزل الأَخْنَس في بني زُهرة مُطاعًا بعدَها.

وأراد بنو هاشمٍ الرُّجوع، فقال أبو جهلٍ: لا تُفارقنا هذه العصابة حتَّىٰ نرجع، فساروا إلَّا طالب بن أبي طالبٍ فرجع.

وسار رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتَّىٰ نزل علىٰ ماءٍ أدنىٰ مياه بدرٍ، فقال الحُبَاب بن المُنذر: إن رأيت أن نسير إلىٰ قُلُبٍ -أي: آبار- كثيرة الماء عذبةٍ فننزل عليها، ونُغوِّر -أي: نردمه حتىٰ يذهب الماء- ما سواها من المياه؟

وأنزل الله تلك الليلة مطرًا واحدًا صلَّب الرَّمْل، وثبَّت الأقدام، وربط علىٰ قلوبهم.

ومشىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في موضع المعركة، وجعل يشير بيده ويقول: «**هذا مَصرع فلانٍ، وهذا مَصرع فلانٍ إن شاء الله**». فما تعدَّىٰ أحدٌ منهم موضع إشارته صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

فلمَّا طلع المشركون، قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**اللَّهمَّ هذه قريشٌ جاءت بخُيلائها وفخرها، جاءت تُحادُّك** -أي: تُخالفُك وتُعادِيك- **وتُكذِّب رسولك، اللَّهمَّ فنصرك الَّذي وعدتني، اللَّهم أَحِنْهم** -أي: أهلكهم- **الغَداة**». وقام ورفع يديْه واستنصر ربَّه، وبالغ في التَّضرُّع، ورفع يديْه حتَّىٰ سقط رداؤُه، وقال «**اللَّهمَّ أنجز لي ما وعدتني، اللَّهم إنِّي أنشدك عهدك ووعدك، اللَّهمَّ إن تهلك هذه العِصابة لن تُعبد في الأرض بعدُ**». [رواه البخاري (٢٩١٥)، ومسلم (١٧٦٣) بنحوه].

فالتزمه أبو بكرٍ الصِّدِّيق من ورائه، وقال: حسْبُك مُناشدتك ربَّك يا رسول الله، أبشر فوالَّذي نفسي بيده ليُنجزنَّ الله لك ما وعدك.

واستنصر المسلمون الله واستغاثوه، فأوحىٰ الله إلىٰ الملائكة: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾

[الأنفال: ١٢]، وأوحىٰ الله إلىٰ رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]. مُرْدِفِينَ: أي: مُتَتابِعينَ.

فلمَّا أصبحوا، أقبلت قريشٌ في كتائبها، وقلَّل الله المسلمين في أعينهم، وقلَّل الله المشركين أيضًا في أعين المسلمين؛ ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

وأمر أبو جهلٍ عامرَ بن الحضرميِّ -أخا عمرِو بن الحضرميِّ- أن يطلب دمَ أخيه، فصاح وكشف عن اسْتِه يصرخ: واعَمْرَاه! واعَمْرَاه! فحَمِيَ القوم.

وعدَّل رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الصُّفوف، ثمَّ انصرف وغفا غفوةً، وأخذ المسلمين النُّعاس، وأبو بكرٍ الصِّدِّيق معَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يحرسه، وعندَه سعد بن مُعاذٍ وجماعةٌ من الأنصار علىٰ باب العريش.

فخرج رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَثِبُ في الدِّرع ويتلو هذه الآية: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥].

وكان أن خرج عُتبة وشَيبة ابنا ربيعة والوليدُ بن عُتبة يطلبون المبارزة، فخرج إليهم ثلاثةٌ من الأنصار، فقالوا: أكفاءٌ كرامٌ، ما لنا بكم من حاجةٍ، إنَّما نريد من بني عمِّنا.

فبرز إليهم حمزة وعُبيدة بن الحارث بن المطَّلب وعليُّ بن أبي طالبٍ، فقتل عليٌّ قِرْنَه الوليد، وقتل حمزة قِرْنَه شيبة، واختلف عُبيدة وعُتبة ضربتين كلاهما أثبت صاحبه، فكرَّ حمزة وعليٌّ علىٰ قِرْنِ عُبيدة فقتلاه، واحتملا عُبيدة قد قُطعت رجله.

ومات بالصَّفراء، وفيهم نزلت: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ﴾ [الحج: ١٩] الآية، فكان عليٌّ يقول: «أنا أوَّل مَن يجثو للخصومة بينَ يدي الله عَزَّوَجَلَّ يومَ القيامة». [رواه البخاري (٣٩٦٥)].

وكان أنَّ قريشًا لمَّا عزمت علىٰ الخروج، وذكروا ما بينَهم وبينَ بني كِنانة من الحرب، تبدَّىٰ لهم إبليس في صورة سُراقة بن مالكٍ، فقال: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡ﴾ [الأنفال: ٤٨]، فلمَّا تعبَّئوا للقتال ورأىٰ الملائكة فرَّ ونكَصَ علىٰ عقبيْهِ -أي: ولَّىٰ مُدبرًا-، فقالوا: إلىٰ أين يا سُراقة؟ فقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وكان أن ظنَّ المنافقون ومَن في قلبه مرضٌ أنَّ الغلبة بالكثرة، فقالوا: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡ﴾ [الأنفال: ٤٩]، فأخبر الله سبحانه: أنَّ النَّصر إنَّما هو بالتَّوكُّل علىٰ الله وحدَه.

ولما دنا العدوُّ قام رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فوعظ النَّاس وذكَّرَهم بما لهم في الصَّبر والثَّبات من النصر، وأنَّ الله قد أوجب الجنَّة لمَن يُستشهَد في سبيله، فأخرج عُمير بن الحُمام تمراتٍ يأكلهنَّ، ثمَّ قال: لئن حييت حتَّىٰ آكل تمراتي هذه إنَّها لحياةٌ طويلةٌ! فرمىٰ بهنَّ وقاتل حتَّىٰ قُتل، فكان أوَّل قتيلٍ.

وأخذ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ملء كفِّه تُرابًا فرمىٰ به في وجوه القوم، فلم تترك رجلًا منهم إلَّا ملأت عينيهِ، فهو قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

واستفتح أبو جهلٍ فقال: اللَّهمَّ أقطعنا للرَّحم، وأتانا بما لا نعرف، فأَحِنْه -أي: أهلكه- الغداةَ.

ومنح الله المسلمين أكتاف المشركين، فتناولوهم قتلًا وأسرًا، فقتلوا سبعين وأسروا سبعين.

ولمَّا وضع المسلمون أيديهم علىٰ العدوِّ -وسعد بن مُعاذٍ واقفٌ عندَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في رجالٍ من الأنصار في العريش- رأىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في وجه سعدٍ الكراهية، فقال: «**كأنَّك تكره ما يصنع النَّاس؟ قال: أجل والله يا رسول الله، كانت أوَّل وقعةٍ أوقعها الله في المشركين، وكان الإثْخَان في القتل**

-الإثخانُ: بُلوغُ الغايةِ فِي النِّكايةِ، والاستِكثارُ مِن القتْل- **أحبَّ إليَّ من استبقاء الرِّجال»**.

ولمَّا بردت الحرب وانهزم العدوُّ، قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَن ينظر لنا ما صنع أبو جهلٍ؟**»، فانطلق ابن مسعودٍ فوجده قد ضربه ابنا عَفْرَاء.

فأخذ ابن مسعودٍ بلحيته، فقال: أنتَ أبو جهلٍ؟

فقال أبو جهلٍ: لمَن الدَّائرة اليوم؟ قال: لله ورسوله. ثمَّ قال ابن مسعودٍ له: هل أخزاك الله يا عدوَّ الله؟

فقال أبو جهلٍ: وهل فوقَ رجلٍ قتله قومه؟ فاحتزَّ رأسَه عبد الله بن مسعودٍ، ثمَّ أتىٰ النَّبيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: قتلتُه. فقال: «**آلله الَّذي لا إله إلَّا هو؟**» -ثلاثًا-.

ثمَّ قال: «**الحمد لله الَّذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، انطلق فأرنيه**». فانطلقنا فأريته إياه، فلما وقف عليه قال: «**هذا فرعون هذه الأُمَّة**». [رواه أحمد (٣٨٢٤)].

وأَسَر عبدُ الرَّحمن بن عَوفٍ أُميَّةَ بنَ خَلفٍ وابنَه عليًّا، فأبصره بلالٌ -وكان أُميَّة يعذِّبه بمكَّة- فقال: رأس الكفر

أُميَّة؟ لا نجوتُ إن نجا. ثمَّ استحمىٰ جماعةً من الأنصار، واشتدَّ عبد الرَّحمن بهما يحجزهما منهم، فأدركوهم، فشغلهم عن أُميَّة بابنه عليٍّ، ففرغوا منه، ثمَّ لحقوهما، فقال له عبد الرَّحمن: ابرُك. فبرك، وألقىٰ عليه عبد الرَّحمن بنفسه، فضربوه بالسُّيوف من تحته حتَّىٰ قتلوه، وأصاب بعض السُّيوف رِجل عبد الرَّحمن.

وانقطع يومَئذٍ سيف عُكاشةَ بن مِحْصَن، فأعطاه النَّبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جِذْلًا -أصل الشجرة- من حَطَبٍ، فلمَّا أخذه وهزَّه عاد في يده سيفًا طويلًا، فلم يزل يقاتل به حتَّىٰ قُتِلَ يومَ الرِّدَّة.

ولما انقضت الحرب، أقبل النَّبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتَّىٰ وقف علىٰ القتلىٰ، فقال: «**بئسَ عشيرة النَّبيِّ كنتُم! كذَّبتُموني وصدَّقني النَّاس، وخذلتُموني ونصرني النَّاس، وأخرجتُموني وآواني النَّاس!**».

ثمَّ أُمر بهم فسُحبوا حتَّىٰ أُلْقُوا في قليب بدرٍ، ثمَّ وقف عليهم فقال: «**يا عُتبة بن ربيعة، ويا شَيبة بن ربيعة، ويا فلانُ، ويا فلانُ، هل وجدتم ما وعدَكم ربُّكم حقًّا؟ فإنِّي قد وجدتُ ما وعدني ربِّي حقًّا**»، فقال عمر: يا رسول الله، ما تُخاطب

من أقوامٍ قد جيَّفوا؟ فقال: «**ما أنتَ بأسمع لما أقول منهم**».

[رواه البخاري (٣٩٧٦)، ومسلم (٢٨٧٤)].

ثمَّ ارتحل صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مُؤيَّدًا منصورًا قرير العين، معَه الأَسرَىٰ والمغانم.

فلمَّا كان بالصَّفراء قسم الغنائم، وضرب عنق النَّضر بن الحارث، ثمَّ لمَّا نزل بعرق الظَّبية ضرب عنق عُقبة بن أبي مُعيطٍ.

ثمَّ دخل المدينة مُؤيَّدًا منصورًا، قد خافه كلُّ عدوٍّ له بالمدينة، فأسلم بشرٌ كثيرٌ من أهل المدينة، ودخل عبد الله بن أُبيٍّ رأس المنافقين وأصحابه في الإسلام.

وجُملة من حضر بدرًا: ثلاثمائةٍ وبضعةَ عشرَ رجلًا، واستشهد منهم أربعةَ عشرَ رجلًا.

قسم غنائم بدرٍ:

ثمَّ إنَّ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أمر بالغنائم فجُمعت، فاختلفوا:

فقال مَن جمعها: هي لنا.

وقال مَن هزم العدوَّ: لولانا ما أصبتموها.

وقال الَّذين يحرسون رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ما أنتم بأحقَّ بها منَّا.

قال عُبادة بن الصَّامت: فنزعها الله من أيدينا، فجعلها إلىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقسَّمه بينَ المسلمين، وأنزل الله تعالىٰ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١] الآيات.

ففرَّق رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الأَسرَىٰ علىٰ أصحابه، وقال: استوصوا بالأسرىٰ خيرًا. فكان أبو عزيز بن عُميرٍ عندَ رجلٍ من الأنصار، فقال له أخوه مُصعبٌ: شدَّ يدك به؛ فإنَّ أخته ذات متاعٍ. فقال أبو عزيزٍ: يا أخي، هذه وصيَّتك بي؟ فقال مُصعبٌ: إنَّه أخي دونَك.

قال أبو عزيزٌ: وكنتُ معَ رهطٍ من الأنصار حينَ قفلوا، فكانوا إذا قدَّموا طعامًا خصُّوني بالخبز وأكلوا التَّمر؛ لوصيَّة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إيَّاهم بنا، ما يقع في يد رجلٍ منهم كسرةٌ إلَّا نفحني بها. قال: فأستحيي. فأردُّها علىٰ أحدهم، فيردُها عليَّ ما يمسُّها.

أُسارَىٰ بدرٍ:

واستشار رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أصحابه في الأَسرَىٰ، وهم سبعون.

فأشار الصِّدِّيق: أن يُؤخَذ منهم فديةٌ تكون لهم قوَّةً ويطلقهم؛ لعلَّ الله يهديهم للإسلام.

فقال عمر: لا والله ما أرىٰ ذلك، ولكنِّي أرىٰ أن تُمكِّننا فنضرب أعناقهم؛ فإنَّ هؤلاء أئمَّة الكفر وصناديد الشِّرك.

فهَوِيَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ما قال أبو بكرٍ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنفال: ٦٧] الآيتين.

قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: فلمَّا كان من الغد غدوت علىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فإذا هو قاعدٌ وأبو بكرٍ يبكيان.

فقلت: يا رسول الله، أخبرني ما يُبكيك وصاحبك؟ فإن وجدتُ بكاءً بكيت، وإن لم أجد تباكيتُ لبكائكما.

فقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أبكي للَّذي عرض عليَّ أصحابك من الغد من أخذهم الفداء، فقد عُرض عليَّ عذابهم أدنَىٰ من هذه**

الشَّجرة -لشجرةٍ قريبةٍ منه-». وقال: «**لو نزل عذابٌ ما سلم منه إلَّا عمر**». [رواه مسلم (١٧٦٣)].

وقال الأنصار للنَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: نريد أن نترك لابن أُختنا العبَّاس فداءه. فقال: «**لا تدعوا منه درهمًا**» [رواه البخاري (٢٥٣٧)].

حوادث السَّنة الثَّالثة من الهجرة.

بعثُ قريشٍ إلىٰ النَّجاشيِّ تطلب إرجاع المسلمين:

وبعدَ بدرٍ، اجتمعت قريشٌ في دار النَّدوة، وقالوا: إنَّ لنا في الَّذين عندَ النَّجاشيِّ ثأرًا، فاجمعوا مالًا وأهدوه إلىٰ النَّجاشيِّ؛ لعلَّه يدفع إليكم مَن عندَه.

ولنَتَدِب لذلك رجلينِ من أهل رأيكم، فبعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد معَ الهديَّة.

فركبا البحر، فلمَّا دخلا علىٰ النَّجاشيِّ سجدا له وسلَّما عليه، وقالا: قومنا لك ناصحون، وإنَّهم بعثونا إليك لنُحذِّرك هؤلاءِ الَّذين قدموا عليك؛ لأنَّهم قومٌ اتَّبعوا رجلًا كذَّابًا خرج فينا يزعم أنَّه رسول الله، ولم يتَّبعه إلَّا السُّفهاء، فضيَّقنا عليهم وألجأناهم إلىٰ شِعبٍ بأرضنا، لا يخرج منهم أحدٌ ولا يدخل عليهم أحدٌ، فقتلهم الجوع والعطش.

فلمَّا اشتدَّ عليهم الأمر، بعث إليك ابن عمِّه ليُفسد عليك دينك وملكك، فاحذرهم وادفعهم إلينا لنكفيكهم، وآية ذلك:

أنَّهم إذا دخلوا عليك لا يسجدون لك، ولا يحيُّونك بالتَّحيَّة الَّتي تُحيَّىٰ بها؛ رغبةً عن دينك.

فدعاهم النَّجاشيُّ، فلمَّا حضروا صاح جعفر بن أبي طالبٍ بالباب: «**يستأذن عليك حزب الله**». فقال النَّجاشيُّ: مروا هذا الصَّائح فليُعد كلامه. ففعل، قال: نعم، فليدخلوا بإذن الله وذمَّته.

فدخلوا ولم يسجدوا له، فقال: ما منعكم أن تسجدوا لي؟ قالوا: إنَّما نسجد لله الَّذي خلقك وملَّكك، وإنَّما كانت تلك التَّحيَّة لنا ونحن نعبد الأوثان، فبعث الله فينا نبيًّا صادقًا وأمرنا بالتَّحيَّة الَّتي رضيها الله، وهي «السَّلام» تحيَّة أهل الجنَّة، فعرف النَّجاشيُّ أنَّ ذلك حقٌّ، وأنَّه في التَّوراة والإنجيل.

فقال: أيُّكم الهاتف يستأذن؟ فقال جعفرٌ: أنا. قال: فتكلَّم. قال: إنَّك ملكٌ لا يصلح عندَك كثرة الكلام ولا الظُّلم، وأنا أُحبُّ أن أُجيب عن أصحابي، فأمُرْ هذينِ الرَّجلين فليتكلَّم أحدهما، فتسمع محاورتنا.

فقال عمرٌو لجعفرٍ: تكلَّم. فقال جعفرٌ للنَّجاشيِّ: سَلْه، أعبيدٌ نحن أم أحرارٌ؟ فإن كنَّا عبيدًا أَبَقْنا من أربابنا فارددنا إليهم. فقال عمرٌو: بل أحرارٌ كرامٌ.

فقال: هل أَهْرَقْنا دمًا بغير حقٍّ فيُقتصَّ منا؟ قال عمرٌو: ولا قطرةً. فقال: هل أخذنا أموال النَّاس بغير حقٍ، فعلينا قضاؤها؟ فقال عمرٌو: ولا قِيراطًا. فقال النَّجاشيُّ: فما تطلبون منهم؟

قال: كنَّا نحن وهم علىٰ أمرٍ واحدٍ علىٰ دين آبائنا، فتركوا ذلك واتَّبعوا غيره.فقال النَّجاشيُّ: ما هذا الَّذي كنتُم عليه، وما الَّذي اتَّبعتموه؟ قُل واصدُقني.

فقال جعفرٌ: أمَّا الَّذي كُنَّا عليه فتركناه، فهو دين الشَّيطان، كنَّا نكفر بالله ونعبد الحجارة، وأمَّا الَّذي تحوَّلنا إليه، فدين الله الإسلامُ، جاءنا به من الله رسولٌ وكتابٌ مثل كتاب ابن مريم مُوافقًا له.

فقال: تكلَّمتَ بأمرٍ عظيم، فعلىٰ رِسْلك. ثمَّ أمر بضرب النَّاقوس، فاجتمع إليه كلُّ قسِّيسٍ وراهبٍ. فقال لهم: أنشدُكم الله الَّذي أنزل الإنجيل علىٰ عيسىٰ، هل تجدون بينَ عيسىٰ وبينَ يوم القيامة نبيًّا؟ قالوا: اللَّهمَّ نعم، قد بشَّرنا به عيسىٰ، وقال: مَن آمن به فقد آمن بي، ومَن كفر به فقد كفر بي.

فقال النَّجاشيُّ لجعفرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ماذا يقول لكم هذا الرَّجل؟ وما يأمركم به؟ وما ينهاكم عنه؟

فقال: يقرأ علينا كتاب الله، ويأمرنا بالمعروف، وينهانا عن المنكر، ويأمرنا بحُسن الجِوار وصلة الرَّحم وبرِّ اليتيم، ويأمرنا بأن نعبد الله وحدَه لا شريك له.

فقال: اقرأ ممَّا يقرأ عليكم. فقرأ سُورتي العنكبوت والرُّوم، ففاضت عينا النَّجاشيِّ من الدَّمع، فقال: زدنا من هذا الحديث الطِّيِّب، فقرأ عليهم سورة الكهف.

فأراد عمرٌو أن يُغضِب النَّجاشيَّ، فقال: إنَّهم يشتمون عيسىٰ وأمَّه. فقال: ما تقولون في عيسىٰ وأُمِّه؟ فقرأ عليهم سورة مريم، فلمَّا أتىٰ علىٰ ذكر عيسىٰ وأُمِّه، رفع النَّجاشيُّ بقَشَّةٍ من سواكه قدر ما يقذِي العين، فقال: والله، ما زاد المسيح علىٰ ما تقولون نَقِيرًا. وفيه نزل قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣ - ٨٤] الآيات.

فأقبل النَّجاشيُّ علىٰ جعفرٍ، ثمَّ قال: اذهبوا فأنتم سُيومٌ بأرضي -والسُّيوم: الآمنون- من سَبَّكم غُرِّم، فلا هوادة اليوم علىٰ حزب إبراهيم.

غزوة بني قَيْنُقَاع:

كان بنو قينُقاع من يهود المدينة، فنقضوا العهد، فحاصرهم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خمسَ عشرةَ ليلةً.

فنزلوا علىٰ حكمه، فشفع فيهم عبد الله بن أُبيٍّ ابن سلولٍ، وألحَّ علىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيهم.

فأطلقهم له، وكانوا سبعمائة رجلٍ، وهم رهط عبد الله بن سلامٍ.

غزوة أُحُدٍ:

في هذه السَّنة الثَّالثة كانت وقعة أُحُدٍ في شوَّالٍ.

وذلك: أنَّ الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ لمَّا أوقع بقريشٍ يوم بدرٍ، وترأَّس فيهم أبو سفيان لذَهاب أكابرهم، أخذ يُؤلِّب -أي: يُحَرِّض- علىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وعلىٰ المسلمين ويجمع الجموع، فجمع قريبًا من ثلاثة آلافٍ من قريشٍ والحُلفاء والأَحابِيش، وجاؤوا بنسائهم لئلَّا يفرُّوا.

ثمَّ أقبل بهم نحو المدينة، فنزل قريبًا من جبل أُحدٍ.

فاستشار رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ في الخروج إليهم:

وكان رأيُه ألَّا يخرجوا، فإن دخلوها قاتلهم المسلمون علىٰ أفواه السِّكك، والنِّساء من فوق البيوت، ووافقه عبد الله بن أُبيٍّ -رأس المنافقين- علىٰ هذا الرَّأي.

فبادر جماعةٌ من فُضلاء الصَّحابة ممن فاتهم بدرٌ، وأشاروا علىٰ رسول الله بالخروج، وألحُّوا عليه.

فنهض ودخل بيته ولبس لَأْمَتَه -أي: درعه، أو أداة الحرب- وخرج عليهم، فقالوا: استكرهنا رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ علىٰ الخروج! ثمَّ قالوا: إن أحببتَ أن تمكث بالمدينة فافعل. فقال: «**ما ينبغي لنبيٍّ إذا لبس لَأْمَتَه أن يضعها، حتَّىٰ يحكم الله بينَه وبينَ عدوِّه**». [رواه أحمد (١٤٧٨٧)، وعلَّقه البخاري (٩/ ١١٢)].

فخرج في ألفٍ من أصحابه، واستعمل علىٰ المدينة عبد الله ابن أمِّ مكتومٍ.

وكان رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رأىٰ رؤيا: رأىٰ أنَّ في سيفه ثُلْمَةً، وأنَّ بقرًا تُذبح، وأنَّه يُدخِل يدَه في درعٍ حصينةٍ.

فتأوَّل الثُّلمة برجلٍ يُصاب من أهل بيته، والبقر بنفرٍ من أصحابه يُقتلون، والدِّرع بالمدينة.

فخرج وقال لأصحابه: «**عليكم بتقوَىٰ الله والصَّبر عندَ البأس إذا لقيتم العدوَّ، وانظروا ماذا أمركم الله به فافعلوا**».

فلمَّا كان بالشَّوط بينَ المدينة وأُحدٍ، انخذل عبد الله بن أُبيٍّ بنحو ثُلُث العسكر، وقال: عصاني وسمع من غيري ما ندري، علام نقتل أنفسنا ها هنا أيُّها النَّاس؟! فرجع، وتبعهم عبد الله ابنُ عمرٍو -والد جابرٍ- يُحرِّضُهم علىٰ الرُّجوع، ويقول: قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا. قالوا: لو نعلم أنَّكم تُقاتلون لم نرجع، فرجع عنهم وسبَّهم.

وسأل نفرٌ من الأنصار رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يستعينوا بحُلفائهم من يهود، فأبىٰ.

وقال: «**مَن يخرج بنا علىٰ القوم من كَثَبٍ** -أي: من قرب-؟».

فخرج به بعض الأنصار، حتَّىٰ سلك في حائطٍ لِمِرْبَع بن قَيْظِيٍّ من المنافقين -وكان أعمىٰ-، فقام يحثو التُّراب في وجوه المسلمين ويقول: لا أُحلُّ لك أن تدخل في حائطي إن كنت رسول الله.

فابتدروه ليقتلوه، فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لا تقتلوه، فهذا أعمىٰ القلب أعمىٰ البصر**».

ونفذ حتَّىٰ نزل الشِّعب من أُحدٍ، في عُدوة الوادي الدُّنيا، وجعل ظهره إلىٰ أُحدٍ، ونهَىٰ النَّاس عن القتال حتَّىٰ يأمرهم.

فلمَّا أصبح يوم السَّبت تعبَّأ للقتال، وهو في سبعمائةٍ، منهم خمسون فارسًا.

واستعمل علىٰ الرُّماة -وكانوا خمسين- عبد الله بن جُبيرٍ، وأمرهم ألَّا يُفارقوا مركزهم ولو رأوا الطَّير تختطف العسكر، وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنَّبل؛ لئلَّا يأتوا المسلمين من ورائهم.

وظاهر رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بين درعين، وأعطىٰ اللِّواء مُصعب بن عُميرٍ، وجعل علىٰ إحدىٰ المُجنِّبتينِ الزُّبَير بن العوَّام، وعلىٰ الأُخرىٰ المُنذر بن عمرٍو.

واستعرض الشَّباب يومَئذٍ، فردَّ مَن استصغر عن القتال، كابن عُمر، وأسامة بن زيدٍ، والبراء، وزيد بن أرقمٍ، وزيد بن ثابتٍ، وعُرابة الأوسيِّ، وأجاز مَن رآه مُطيقًا.

وتعبَّأت قريشٌ -وهم ثلاثة آلافٍ، وفيهم مائتا فارسٍ- فجعلوا علىٰ ميمنتهم خالد بن الوليد، وعلىٰ الميسرة عِكْرِمة ابن أبي جهلٍ.

ودفع رسول الله ﷺ سيفه إلىٰ أبي دُجانَة.

وكان أوَّل مَن بدَرَ من المشركين أبو عامرٍ -عبد عمرو بن صيِّفيٍّ- الفاسق، وكان يُسمَّىٰ الرَّاهب، وهو رأس الأوس في الجاهليَّة، فلمَّا جاء الإسلام شرق به وجاهر بالعداوة.

فذهب إلىٰ قريشٍ يُؤلِّبهم علىٰ رسول الله ﷺ، ووعدهم بأنَّ قومه إذا رأوه أطاعوه.

فلمَّا ناداهم وتعرَّف إليهم، قالوا: لا أنعم الله بك عينًا يا فاسق!

فقال: لقد أصاب قومي بعدي شرٌّ، ثمَّ قاتل المسلمين قتالًا شديدًا، ثمَّ أرضخهم بالحجارة.

وأبلىٰ يومَئذٍ أبو دُجانة، وطَلْحة، وحمزة، وعليٌّ، والنَّضر بن أنسٍ، وسعد بن الرَّبيع، بلاءً حسنًا.

وكانت الدَّولة أوَّل النَّهار للمسلمين، فانهزم أعداء الله وولَّوْا مُدبرين، حتَّىٰ انتهوا إلىٰ نسائهم.

فلمَّا رأىٰ ذلك الرُّماة، قالوا: الغنيمةَ الغنيمةَ! فذكَّرَهم أميرُهم عهدَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فلم يسمعوا، فأَخْلَوُا الثَّغر.

وكرَّ فرسان المشركين عليه فوجدوه خاليًا، فجاؤوا منه، وأقبل آخرُهم حتَّىٰ أحاطوا بالمسلمين، فأكرم الله من أكرم منهم بالشَّهادة، وهم سبعون، وولَّىٰ الصَّحابة.

وخلص المشركون إلىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فجرحوه جراحاتٍ وكسروا رَبَاعِيَته، وقُتل مُصعب بن عُميرٍ بينَ يديه، فدفع اللِّواء إلىٰ عليِّ بن أبي طالبٍ.

وأدرك المشركون رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يريدون قتله، فحال دونَه نحو عشرةٍ، حتَّىٰ قُتلوا، ثمَّ جَالدَهم طَلحة بن عُبيد الله حتَّىٰ أجهضهم عنه، وترَّس أبو دُجانة عليه بظهره، والنَّبْل يقع فيه وهو لا يتحرَّك.

وأُصيبت يومَئذٍ عينُ قَتادة بن النُّعمان، فأتىٰ بها رسولَ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فردَّها بيده، فكانت أحسن عينيهِ.

وصرخ الشَّيطان: إنَّ محمَّدًا قد قُتِلَ، فوقع ذلك في قلوب كثيرٍ من المسلمين، فمرَّ أنس بن النَّضر بقومٍ من المسلمين قد ألقَوْا بأيديهم، فقالوا: قُتِلَ رسول الله ﷺ! فقال: ما تصنعون بالحياة بعدَه؟! قوموا فموتوا علىٰ ما مات عليه.

ثمَّ استقبل النَّاسَ، ولقي سعد بن مُعاذٍ، فقال: يا سعد، إنِّي لأجد ريح الجنَّة من دون أُحدٍ. فقاتل حتَّىٰ قُتل، ووجد به سبعون جراحةً.

وقتل وحشيٌّ الحبشيُّ حمزة بن عبد المطِّلب رضي الله عنه، رماه بحربةٍ علىٰ طريقة الحبشة.

وأقبل رسول الله ﷺ نحو المسلمين، فكان أوَّل من عرفه تحت المِغْفَر -ما يُنسج من الدروع علىٰ قدر الرَّأس، يلبس تَحت القلنسوة- كعب بن مالكٍ، فصاح بأعلىٰ صوته: يا معشر المسلمين، هذا رسول الله. فأشار إليه أن اسكُت، فاجتمع إليه المسلمون، ونهضوا معَه إلىٰ الشِّعب الَّذي نزل فيه.

فلمَّا أسندوا إلىٰ الجبل أدركه أُبيُّ بن خلفٍ علىٰ فرس له كان يزعم بمكَّة أنه يقتل عليه رسول الله ﷺ، فلمَّا اقترب

منه طعنه رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في تَرْقُوته فكرَّ مُنهزمًا، فقال له المشركون: ما بك من بأسٍ. فقال: والله، لو كان ما بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعين. فمات بسَرِفٍ.

وحانت الصَّلاة، فصلَّىٰ بهم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جالسًا.

وشدَّ حَنظلة بن أبي عامرٍ علىٰ أبي سُفيان، فلمَّا تمكَّن منه حمل عليه شدَّاد بن الأسود فقتله، وكان حنظلة جُنُبًا؛ فإنَّه سمع الصَّيحة وهو علىٰ بطن امرأته، فقام من فوره إلىٰ الجهاد، فأخبر رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنَّ الملائكة تُغسِّله.

وكان الأُصَيْرِم -عمرو بن ثابتِ بن وَقْشٍ- يأبىٰ الإسلام، وهو من بني عبد الأَشْهَل، فلمَّا كان يوم أُحدٍ قذف الله الإسلام في قلبه؛ للحُسنَىٰ الَّتي سبقت له، فأسلم وأخذ سيفه، فقاتل حتَّىٰ أثبتته الجراح، ولم يعلم أحدٌ بأمره، فلمَّا طاف بنو عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم، وجدوا الأُصيرم وبه رَمَقٌ يسيرٌ، فقالوا: والله إنَّ هذا الأُصيرم. ثمَّ سألوه: ما الَّذي جاء بك؟ أحدبٌ علىٰ قومك -أي: عطف عليهم-، أم رغبةٌ في الإسلام؟ فقال: بل رغبةٌ في الإسلام، آمنتُ بالله وبرسوله وأسلمتُ. ومات من وقته، فذكروه لرسول الله

ﷺ، فقال: «**هو من أهل الجنَّة**»، ولم يصلِّ لله سجدةً قطُّ. [رواه أحمد (٢٣٦٣٤)].

ولمَّا انقضت الحرب، أشرف أبو سُفيان علىٰ الجبل ونادىٰ: أفيكم محمَّدٌ؟ فلم يجيبوه، فقال: أفيكم ابن أبي قُحافة؟ فلم يجيبوه، فقال: أفيكم عمر بن الخطَّاب؟ فلم يجيبوه،فقال: أمَّا هؤلاء فقد كُفِيتُمُوهم.

فلم يملك عمرُ نفسَه أن قال: يا عدوَّ الله، إنَّ الَّذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقىٰ الله لك معَهم ما يَسوؤُك.

ثمَّ قال أبو سُفيان: اعلُ هُبَل. فقال رسول الله ﷺ: «**ألا تُجيبونه؟**». قالوا: ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله أعلىٰ وأجلُّ**». ثمَّ قال: لنا العُزَّىٰ، ولا عُزَّىٰ لكم. قال: «**ألا تُجيبونه؟**». قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: «**الله مولانا، ولا مولىٰ لكم**». [رواه البخاري (٣٠٣٩)].

ثمَّ قال: يومٌ بيوم بدرٍ، والحرب سِجالٌ. فقال عمر: لا سواءٌ، قتلانا في الجنَّة، وقتلاكم في النَّار.

وأنزل الله عليهم النُّعاس في بدرٍ وفي أُحدٍ، والنَّعاس في الحرب أَمَنةٌ من الله.

وقاتلت الملائكة يوم أُحدٍ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففي الصَّحيحين عن سعدٍ قال: «**رأيتُ رسول الله يوم أُحدٍ ومعَه رجلان** -هما جبريل وميكائيل عليهما السلام في صورة رجلين- **يُقاتلان عليهما ثيابٌ بيضٌ كأشدِّ القتال، وما رأيتُهما قبلُ ولا بعدُ**». [رواه البخاري (٤٠٥٤)، ومسلم (٢٣٠٦)].

ومرَّ رجلٌ من المهاجرين برجلٍ من الأنصار وهو يتشحَّط في دمه، فقال: يا فلان، أشعرتَ أنَّ محمَّدًا قُتل؟ فقال الأنصاريُّ: إن كان قد قُتل فقد بَلَّغ، فقاتلوا عن دينكم. فنزل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤] الآية.

وكان يوم أُحدٍ يوم بلاءٍ وتمحيصٍ -أي: تنقية وتطهير-، اختبر الله عَزَّوَجَلَّ به المؤمنين، وأظهر به المنافقين، وأكرم فيه من أراد كرامته بالشَّهادة، فكان ممَّا نزل من القُرآن في يوم أُحدٍ إحدىٰ وستُّون آيةً من آل عمران، أوَّلها: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] الآيات.

ولمَّا انصرفت قريشٌ تلاوموا فيما بينَهم، وقالوا: لم تصنعوا شيئًا، أصبتم شوكتهم ثمَّ تركتموهم وقد بقي منهم رؤوسٌ يجمعون لكم! فارجعوا حتَّىٰ نستأصل بقيَّتهم.

فبلغ ذلك رسولَ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فنادىٰ في النَّاس بالمسير إليهم، وقال: «**لا يخرج معَنا إلَّا مَن شهد القتال**». فقال له ابن أُبيٍّ: أركب معَك؟ قال: «**لا**».

فاستجاب له المسلمون علىٰ ما بهم من القَرْح -أي: الجِرَاح- الشَّديد، وقالوا: سمعًا وطاعةً.

وقال جابرٌ: يا رسول الله، إنِّي أُحبُّ ألَّا تشهد مشهدًا إلَّا كنتُ معَك، وإنَّما خلَّفني أبي علىٰ بناته، فأَذْن لي أسرْ معَك. فأَذِن له.

فسار رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والمسلمون معَه حتَّىٰ بلغوا حمراء الأسد، فبلغ ذلك أبا سُفيان ومن معَه، فرجعوا إلىٰ مكة.

وشَرَط أبو سُفيان لبعض المشركين شرطًا: أنَّه إذا مرَّ بالنَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه أن يخوِّفَهم ويذكر لهم أنَّ قريشًا أجمعوا للكرَّة عليكم ليستأصلوا بقيَّتكم. فلمَّا بلغهم ذلك قالوا: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

حوادث السَّنة الرَّابعة

وفي هذه السنة كانت وقعة خُبَيْبٍ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في صفرٍ.

وفي هذا الشَّهر بعينه كانت وقعة أهل بئر مَعُونة.

وفي شهر ربيعٍ الأوَّل كانت غزوة بني النَّضير، ونزل فيها سورة الحشر.

حوادث السَّنة الخامسة

غزوة المُرَيْسِيع:

كانت غزوة المريسيع علىٰ بني المُصْطَلق، أغار عليهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم غارُّون -أي: غافلون-.

فسبَىٰ النِّساء والنَّعَم والشَّاء، وكان من جملة السَّبي جُوَيْرِيَة بنت الحارث -سيِّد القوم-، وقعت في سهم ثابت بن قيسٍ فكاتبها، فأدَّىٰ عنها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتزوَّجها.

فأعتق المسلمون بسبب هذا التَّزوُّج مائة أهل بيتٍ من بني المُصطلق، وقالوا: أصهار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قصَّة الإِفْك:

في غزوة المُريسِيع كانت قصَّة الإفك، وذلك: أنَّ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا خرج بها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معَه بقُرعةٍ -وتلك كانت عادته مع نسائه-، فلَّما رجعوا نزلوا في طريقهم في بعض المنازل.

فخرجت عائشة لحاجتها، ثمَّ رجعت، ففقدت عِقدًا عليها، فرجعت تلتمسه.

فجاء الَّذين يُرحِّلون هَوْدَجَها -أي: يضعونه علىٰ ظهر البعير، والهودج: أَدَاة ذَات قبَّة تُوضَع علىٰ ظهر الْجمل لتركب فِيهَا النِّسَاء-، فحملوه وهم يظنُّونها فيه؛ لأنَّها صغيرة السِّنِّ.

فرجعت -وقد وجدت العِقد- إلىٰ مكانِهم، فإذا ليس به داعٍ ولا مُجيبٌ، فقعدت في المنزل، وظنَّت أنَّهم يفقدونها ويرجعون إليها.

فغلبتها عيناها، فلم تستيقظ إلَّا بقول صَفْوان بن المُعطِّل: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون! زوجة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!

وكان صفوان قد عرَّس -أي: نزل- في أُخريات الجيش؛ لأنَّه كان كثير النَّوم، فلمَّا رآها عرفها -وكان يراها قبلَ الحجاب- فاسترجع، وأناخ راحلته فركبت، وما كلَّمها كلمةً واحدةً، ولم تسمع منه إلَّا استرجاعه.

ثمَّ سار يقود بها، حتَّىٰ قدم بها وقد نزل الجيش في نحر الظَّهيرة.

فلمَّا رأىٰ ذلك النَّاس، تكلَّم كلٌّ منهم بشاكلته، ووجد رأس المنافقين -عدوُّ الله عبد الله بن أُبيٍّ- مُتنفَّسًا، فتنفَّس من كُرب النِّفاق والحسد، فجعل يستحكي الإفك ويجمعه ويُفرِّقه، وكان أصحابه يتقرَّبون إليه به.

فلمَّا قدموا المدينة، أفاض أهل الإفك في الحديث، ورسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ساكتٌ لا يتكلَّم.

ثمَّ استشار في فراقها، فأشار عليه عليٌّ بفراقها، وأشار عليه أسامة بإمساكها.

واقتضىٰ تمام الابتلاء: أن حبس الله عن رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الوحيَ شهرًا في شأنها؛ ليزداد المؤمنون إيمانًا وثباتًا علىٰ العدل والصِّدق، ويزداد المنافقون إفكًا ونفاقًا، ولتتمَّ العبوديَّة المرادة من الصِّدِّيقة وأبوَيْها، وتتمَّ نعمة الله عليهم، ولينقطع رجاء عائشة من المخلوق، وتيأس من حصول النَّصر والفرج إلَّا من الله.

فدخل عليها رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وعندَها أبواها، فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثمَّ قال: «**يا عائشة، إن كنتِ بريئةً فسيُبرئكِ الله، وإن**

كنتِ قد ألممتِ بذنبٍ فاستغفري، فإنَّ العبد إذا اعترف بذنبه ثمَّ تاب، تاب الله عليه». [رواه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠)].

قالت لأبيها: أجب عنِّي رسول الله. قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله!

فقالت لأُمِّها مثل ذلك، وقالت أُمُّها مثل ذلك.

قالت: فقلتُ: إن قلت: إنِّي بريئةٌ -والله يعلم أنِّي بريئةٌ- لا تصدِّقوني، ولا أجد لي ولكم مثلًا إلا أبا يوسف حيثُ قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

قالت: فنزل الوحيُ علىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فأمَّا أنا: فعلمت أنَّ الله لا يقول إلَّا الحقَّ، وأمَّا أبواي فوالَّذي ذهب بأنفاسهما، ما أقلع عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلَّا خفت أنَّ أرواحهما ستخرجان، فكان أوَّل كلمةٍ قالها رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أمَّا الله يا عائشة فقد برَّأك**».

فقال أبواي: قومي إلىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. قلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمدُ إلَّا اللهُ. [رواه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠)].

وكان حسَّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ممَّن قيل عنه إنَّه يتكلَّم معَ أهل الإفك، فقال يعتذر إلىٰ عائشة ويمدحها:

حَصــانٌ رَزانٌ مــا تُــزَنُّ بريبــةٍ
وتصبــح غَرْثَىٰ من لحــوم الغَوافل

عقيلــةُ حيٍّ مــن لُؤيِّ بــن غالبٍ
كرام المســاعي مجدُهم غير زائل

مُهذَّبــةٌ قــد طيَّــب الله خَيْمَهــا
وطهَّرَهــا مــن كلِّ سُــوءٍ وباطل

لئــن كان مــا قد قيــلَ عنِّــيَ قلته
فلا رفعــت سَــوْطي إلــيَّ أناملي

وكيف ووُدِّي ما حييــتُ ونُصرتي
لآل رســول الله زيــن المحافل؟!

وأنزل الله تعالىٰ في هذه القصَّة أوَّل سورة النُّور، من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: ١١] إلىٰ آخر القصَّة.

غزوة الأحزاب :

كانت وقعة الخندق في شوالٍ من السَّنة الخامسة.

وسببها: أنَّ اليهود لمَّا رأوا انتصار المشركين يوم أُحدٍ، خرج أشرافُهم -كسلَّام بن أبي الحُقَيْق وغيره- إلىٰ قريشٍ بمكَّة يُحرِّضونهم علىٰ غزو رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ووعدوهم من أنفسهم النَّصر لهم.

فأجابتهم قريشٌ، ثمَّ خرجوا إلىٰ غَطَفَان فاستجابوا لهم، ثمَّ طافوا في قبائل العرب يدعونهم إلىٰ ذلك، فاستجاب لهم مَن استجاب.

فخرجت قريشٌ -وقائدهم أبو سفيان- في أربعة آلافٍ، ووافقهم بنو سُليمٍ بمَرِّ الظَّهران، وبنو أسدٍ وفَزَارة وأشجعُ وغيرُهم، وكان مَن وافىٰ الخندق من المشركين عشرة آلافٍ.

فلمَّا سمع رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بمسيرهم إليه استشار أصحابه، فأشار عليه سَلمان الفارسيُّ بحفر خندقٍ يحول بينَ العدوِّ والمدينة.

فأمر به رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فبادر إليه المسلمون، وعمل فيه بنفسه، وكان في حفره من آيات نبوَّته ما قد تواتر الخبر به،

وخرج صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عليهم وهم يحفرون في غداةٍ باردةٍ، فلمَّا رأىٰ ما بهم من الشِّدَّة والجوع قال:

اللَّهمَّ لا عيش إلَّا عيش الآخِرةْ فاغفر للأنصـــار والمُهاجرةْ

فقالوا مُجيبين له:

نحن الَّذين بايعـــوا محمَّدا علـــىٰ الجهاد مـــا بقِينا أبدا

وخرج رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في ثلاثة آلافٍ من المسلمين، فتحصَّن بالجبل من خلفه -جبل سَلْعٍ- وبالخندق من أمامه، وأمر بالنِّساء والذَّراريِّ فجعلوا في آطام المدينة.

وانطلق حُييُّ بن أَخْطَب إلىٰ بني قُريظة، فدنا من حصنهم، فأبىٰ كعب بن أسدٍ أن يفتح له، فلم يزل يُكلِّمه حتَّىٰ فتح له، فلمَّا دخل الحصن قال: جئتُك بعزِّ الدَّهر، جئتك بقريشٍ وغَطفان وأسدٍ علىٰ قادتها لحرب محمَّدٍ.

قال: بل جئتني والله بذُلِّ الدَّهر، جئتني بجَهَامٍ -أي سحاب رقيق- قد أراق ماءه، فهو يُرعِد ويُبرِق ليس فيه شيءٌ! فلم يزل حتَّىٰ نقض العهد الَّذي بينَه وبينَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ودخل معَ المشركين، وسُرَّ بذلك المشركون، وشرط كعبٌ علىٰ

حُيَيٍّ أنَّهم إن لم يظفروا بمحمَّدٍ أن يجيء حتَّىٰ يدخل معَهم في حصنهم، فيصيبه ما يصيبهم، فشرط ذلك ووفى له.

وبلغ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الخبر، فبعث إليهم السَّعدين -سعد بن مُعاذٍ، وسعد بن عُبادة-، وخوَّات بن جُبيرٍ، وعبد الله بن رَواحة؛ ليتعرَّفوا الخبر، فلمَّا دنوا منهم وجدوهم علىٰ أخبث ما يكون، وجاهروهم بالسَّبِّ، ونالوا من رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فانصرفوا ولحنوا لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لحنًا -أي: أخبروه بالتعريض لا بالتصريح-، فعظم ذلك علىٰ المسلمين، فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين**».

واشتدَّ البلاء، ونجم النِّفاق، واستأذن بعض بني حارثة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الذَّهاب إلىٰ المدينة، وقالوا: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣].

وأقام المشركون محاصِرين رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ شهرًا، ولم يكُن بينَهم قتالٌ لأجل الخندق، إلَّا أنَّ فوارس من قريشٍ -منهم عمرُو بنُ عبد وُدٍّ- أقبلوا نحو الخندق، فلمَّا وقفوا عليه قالوا: إنَّ هذه مكيدةٌ ما كانت العرب تعرفها، ثمَّ تيمَّموا مكانًا ضيِّقًا منه، وجالت بهم خيلهم في السَّبخة ودعوا إلىٰ البراز،

فانتدب لعمرٍو عليُّ بن أبي طالبٍ، فبارزه فقتله الله علىٰ يدي عليٍّ، وكان من أبطال المشركين، وانهزم أصحابه.

ولمَّا طالت هذه الحال علىٰ المسلمين، أراد رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يُصالح عُيَيْنَة بن حِصْنٍ والحارث بن عَوفٍ -رئيسي غطفان- علىٰ ثُلث ثمار المدينة، وينصرفا بقومهما.

فاستشار رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ السَّعدين، فقالا: إن كان الله أمرك فسمعًا وطاعة، وإن كان شيئًا تُحبُّ أن تصنعه صنعناه، وإن كان شيئًا تصنعه لنا فلا؛ لقد كنَّا نحن وهؤلاء القوم علىٰ الشِّرك وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً إلَّا قِرًىٰ أو بيعًا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وأعزَّنا بك نُعطيهم أموالَنا؟ والله لا نُعطيهم إلَّا السَّيف. فقال: «**إنَّما هو شيءٌ أصنعه لكم لمَّا رأيتُ العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدةٍ**».

ثمَّ إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ صنع أمرًا من عنده خذَّل به العدوَّ، وذلك: أنَّ رجلًا من غَطفان -يُقال له: نُعَيْم بن مسعودٍ- جاء إلىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال: قد أسلمتُ، فمُرني بما شئتَ. فقال: «**إنَّما أنتَ رجلٌ واحدٌ، فخذِّل عنَّا ما استطعت، فإنَّ الحرب خَدْعَةٌ**».

فذهب نُعيم بن مسعودٍ إلىٰ بني قُريظة -وكان عشيرًا لهم، وهم لا يعلمون بإسلامه- فدخل عليهم، فقال: إنّكم قد حاربتُم محمَّدًا، وإنَّ قريشًا إن أصابوا فُرصةً شمَّروا إلىٰ بلادهم وتركوكم!

قالوا: فما العمل؟ قال: لا تقاتلوا معَهم حتَّىٰ يعطوكم رهائن. فقالوا: قد أشرتَ بالرَّأي.

ثمَّ مضىٰ إلىٰ قريشٍ فقال: هل تعلمون ودِّي لكم ونصحي؟ قالوا: نعم. قال: إنَّ اليهود قد ندموا علىٰ ما كان منهم، وإنَّهم قد أرسلوا إلىٰ محمَّدٍ أنَّهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه، ثمَّ يُمالئونه عليكم، فإن سألوكم فلا تعطوهم.

ثمَّ ذهب إلىٰ غَطفان، فقال لهم مثل ذلك.

فلمَّا كانت ليلة السَّبت من شوَّالٍ، بعثوا إلىٰ يهود: إنَّا لسنا معَكم بأرض مقامٍ، وقد هلك الكُرَاع والخُفُّ -أي: الخيل والإبل-، فاغدوا بنا إلىٰ محمَّدٍ حتَّىٰ نناجزه، فأرسلوا إليهم: إنَّ اليومَ يومُ السَّبت، وقد علمتم ما أصاب مَن قبلَنا حينَ أحدثوا فيه، ومعَ هذا فلا نقاتل معَكم حتَّىٰ تبعثوا لنا رهائن.

فلمَّا جاءهم رسلهم قالوا: قد صدقكم والله نُعيمٌ. فبعثوا إليهم: إنَّا والله لا نبعث إليكم أحدًا.

فقالت قُريظة: قد صدقكم والله نُعيمٌ. فتخاذل الفريقان.

وأرسل الله علىٰ المشركين جُندًا من الرِّيح، فجعلت تُقوِّض خيامهم، ولا تدع لهم قِدرًا إلَّا كَفأَتها، ولا طُنُبًا -أي: الحبل الذي تشد به الخيمة- إلَّا قلعته، وجُندًا من الملائكة يُزلزلون بهم ويُلقون في قلوبهم الرُّعب، كما قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ [الأحزاب: ٩].

وأرسل رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حُذيفة بن اليَمانِ يأتيه بخبرهم، فوجدهم علىٰ هذه الحال وقد تهيَّئوا للرَّحيل، فرجع إليه فأخبره برحيلهم.

فلمَّا أصبح رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ انصرف عن الخندق راجعًا والمسلمون إلىٰ المدينة، فوضعوا السِّلاح، فجاءه جبريل وقت الظُّهر فقال: أقد وضعتم السِّلاح؟ إنَّ الملائكة لم تضع أسلحتها، انهض إلىٰ هؤلاء -يعني: بني قُريظة-.

غزوة بني قُريظة:

نادىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَن كان سامعًا مطيعًا؛ فلا يُصلِّينَّ العصر إلَّا في بني قُريظة**». [رواه البخاري (٤١١٩)، ومسلم (١٧٧٠) بنحوه].

فخرج المسلمون سِراعًا، حتَّىٰ إذا دنا رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من حصونهم قال: «**يا إخوان القِردة، هل أخزاكم الله، وأنزل بكم نقمته؟**».

وحاصرهم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خمسًا وعشرين ليلةً، حتَّىٰ جَهدَهم الحِصار، وقذف الله في قلوبهم الرُّعب.

فقال لهم رئيسهم كعب بن أسدٍ: إنِّي عارضٌ عليكم خِلالًا ثلاثًا خذوا أيَّها شئتُم:

نُصدِّق هذا الرَّجل ونتَّبعه، فإنَّكم تعلمون أنَّه النَّبيُّ الَّذي تجدونه مكتوبًا عندَكم في التَّوراة. فقالوا: لا نفارق حُكم التَّوراة أبدًا.

قال: فاقتلوا أبناءكم ونساءكم واخرجوا إليه مُصْلتي سيوفكم حتَّىٰ يحكم الله بينكم وبينَه.قالوا: فما خير العيش بعدَ أبنائنا ونسائنا؟

قال: فانزلوا اللَّيلة؛ فعسىٰ أن يكُون محمَّدٌ وأصحابه قد أمِنوكم فيها؛ لأنَّها ليلة السَّبت؛ لعلَّنا أن نصيب منهم غِرَّةً -أي: غفلة-. قالوا: لا نُفسد سبتنا، وقد علمتَ ما أصاب مَن اعتدَوا في السَّبت. فقال: ما بات رجلٌ منكم منذُ ولدته أمُّه ليلةً من الدَّهر حازمًا!

ثمَّ نزلوا علىٰ حُكم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحكَّم فيهم سعد بن مُعاذٍ، فحكم أن تُقتل الرِّجال وتُقسم الأموال وتُسبَىٰ النِّساء والذَّراريُّ.

وأنزل الله في غزوة الخندق صدر سورة الأحزاب، وذكر قصَّتهم في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٩] إلىٰ قوله: ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ [الأحزاب: ٢٧].

حوادث السَّنة السَّادسة

صُلح الحُدَيْبِيَة:

كانت عدَّة الصَّحابة إذ ذاك ألفًا وأربعمائة، وهم أهل الشَّجرة وأهل بيعة الرِّضوان، خرج رسول الله ﷺ بهم معتمرًا لا يُريد قتالًا.

فلمَّا كانوا بذي الحُليفةِ، قَلَّدَ رسول الله ﷺ الهَدْي، وأَشْعَره، وأحرم بالعُمرة، وبعث عينًا من خُزاعة يُخبره عن قريشٍ، حتَّىٰ إذا كان قريبًا من عُسفان أتاه عينُه فقال: إنِّي تركتُ كعب بن لُؤيٍّ وعامر بن لُؤيٍّ قد جمعوا جموعًا، وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت.

[التقليد: هو أن يجعل في عنق الهدي قطعة جلد ونحوها ليعرف بها أنه هدي فلا يتعرض له.

والإشعار: هو أن يشق أحد جنبي سَنام البدنة أو البقرة، إن كان لها سَنام حتىٰ يسيل دمها ويجعل ذلك علامة لكونها هديًا].

حتَّىٰ إذا كان ببعض الطَّريق، قال النَّبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: إنَّ خالد ابن الوليد بكُراع الغَمِيم، فخذوا ذات اليمين. فما شعر بهم خالدٌ حتَّىٰ إذا هو بغَبَرة الجيش، فانطلق يركض نذيرًا.

وانطلق رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، حتَّىٰ إذا كان في ثَنِيَّة المُرَار الَّتي يهبط عليهم منها بَرَكَت راحلته، فقال النَّاس: حَلْ حَلْ -كلمة تقال لزجر النَّاقة لكي تنهض-. فألَحَّت، فقالوا: خَلأَت القَصْواء -أي: امْتنعت من المَشْي-، فقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلقٍ، ولكن حبسها حابس الفيل**». [رواه البخاري (٢٧٣١)].

ثمَّ قال: «**والَّذي نفس محمَّدٍ بيده، لا يسألوني خُطَّةً يُعظِّمون فيها حرمات الله إلَّا أعطيتهم إيَّاها**». [رواه البخاري (٢٧٣١)].

ثمَّ زجرها فوثبت به، فعدل حتَّىٰ نزل بأقصىٰ الحُديبية علىٰ ثَمَدٍ -الثمد: الماء القليل- قليل الماء، فلم يلبث النَّاس أن نزحوه، فشكَوا إليه، فانتزع سهمًا من كِنانته وأمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله، ما زال يجيش -أي: يفور ويتدفق- لهم بالرِّيِّ حتَّىٰ صدروا عنه.

وفزعت قريشٌ لنزوله، فأحبَّ أن يبعث إليهم رجلًا، فدعا

عمر، فقال: يا رسول الله، ليس لي بمكَّة أحدٌ من بني عَدِيٍّ بن كعبٍ يغضب لي إن أُوذيتُ، فأرسلْ عثمانَ؛ فإنَّ عشيرته بها، وإنَّه يُبلِّغ ما أردتَ.

فدعاه فأرسله إلىٰ قريشٍ، وقال: «**أخبرهم أنَّا لم نأت لقتالٍ، وإنَّما جئنا عُمَّارًا، وادعهم إلىٰ الإسلام**». وأمره أن يأتي رجالًا بمكَّة مؤمنين ونساء مؤمناتٍ فيبشِّرهم بالفتح، وأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ مُظهِرٌ دينَه بمكَّة حتَّىٰ لا يَتخفَّىٰ فيها الإيمان.

فانطلق عثمان، فمرَّ علىٰ قريشٍ، فقالوا: إلىٰ أين؟ فقال: بعثني رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أدعوكم إلىٰ الله وإلىٰ الإسلام، ويخبركم أنَّه لم يأت لقتالٍ، وإنَّما جئنا عُمَّارًا. قالوا: قد سمعنا ما تقول، فانفُذ إلىٰ حاجتك.

وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص فرحَّب به، وحمله علىٰ الفرس، وأردفه حتَّىٰ جاء مكَّة.

وقال المسلمون قبلَ أن يرجع: خلص عثمان من بيننا إلىٰ البيت! فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ما أظنُّه طاف بالبيت ونحن محصورون**». قالوا: وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص؟ قال: «**ذلك ظنِّي به ألَّا يطوف بالكعبة حتَّىٰ نطوف معَه**».

واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصُّلح، فرمىٰ رجلٌ من أحد الفريقين رجلًا من الفريق الآخر، فكانت معركةٌ، وترامَوا بالنَّبل والحجارة، وصاح الفريقان وارتهن كلٌّ منهما مَن فيهم.

وبلغ رسولَ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنَّ عثمان قد قُتِلَ، فدعا إلىٰ البيعة، فتبادروا إليه وهو تحتَ الشَّجرة، فبايعوه علىٰ ألَّا يفرُّوا، فأخذ بيد نفسه وقال: «**هذه عن عثمان**».

ولمَّا تمت البيعة رجع عثمان، فقالوا له: اشتفيتَ من الطَّواف بالبيت؟ فقال: بئسما ظننتُم بي! والَّذي نفسي بيده، لو مكثتُ بها سنةً ورسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالحُديبية، ما طفتُ به حتَّىٰ يطوف، ولقد دعتني قريشٌ إلىٰ الطَّواف فأبيت. فقال المسلمون: رسول الله أعلم بالله، وأحسننا ظنًّا.

وكان عمر أخذ بيد رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ للبيعة وهو تحت الشَّجرة، فبايعه المسلمون كلُّهم، لم يتخلَّف إلَّا الجَدُّ بن قَيْسٍ.

وكان مَعْقِل بن يسارٍ آخذًا بغُصنها يرفعه عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وكان أوَّلَ من بايعَه أبو سِنانٍ وَهْب بن مِحْصَنٍ الأَسَدِيُّ، وبايعه سَلمة بن الأَكْوَع ثلاثَ مرَّاتٍ: في أوَّل النَّاس، ووسطهم، وآخرهم.

فبينا هم كذلك، إذ جاء بُدَيْل بن وَرْقَاء في نفرٍ من خُزاعة، وكانوا عَيْبَةَ نصحٍ لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من أهل تِهامة -الْعَيْبَةُ: مَا تُوضَعُ فِيهِ الثِّيَابُ لحِفْظِهَا أَيْ أَنَّهُمْ مَوْضِعُ النُّصْحِ لَهُ وَالْأَمَانَةِ عَلَىٰ سِرِّهِ-، فقال: إنِّي تركت كعب بن لُؤيٍّ وعامر بن لُؤيٍّ قد نزلوا أعداد مياه الحُديبية، معَهم العُوذ المَطَافِيل -هِيَ النوق الَّتِي مَعهَا أَوْلَادهَا-، وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت.

فقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إنَّا لم نجئ لقتال أحدٍ، وإنَّما جئنا مُعتمِرين، وإنَّ قريشًا نهكتهم الحرب وأضرَّت بهم، فإن شاؤوا مادتُهم، ويخلُّوا بيني وبينَ النَّاس، فإن أظهر:

= فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه النَّاس فعلوا، وإلَّا فقد جَمُّوا -أي: استراحوا وكثروا-.

= وإن أبَوا إلَّا القتال، فوالَّذي نفسي بيده، لأُقاتلنَّهم علىٰ أمري هذا حتَّىٰ تنفرد سالفتي -أَي يَنْقَطِع عنقِي لأَن السالفة أعلي الْعُنُق-، أو ليُنفذِنَّ الله أمره». [رواه البخاري (٢٧٣١)].

قال بُديلٌ: سأبلغهم ما تقول. فانطلق حتَّىٰ أتىٰ قُريشًا، فقال: إنِّي قد جئتكم من عند هذا الرَّجل، وسمعته يقول قولًا، فإن شئتم عرضته عليكم. فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تُحدِّثنا

عنه بشيءٍ. وقال ذوو الرَّأي منهم: هاتِ ما سمعته يقول. قال: سمعته يقول كذا وكذا.

فقال عُرْوَة بن مسعودٍ: إنَّ هذا قد عرض عليكم خُطَّة رُشدٍ فاقبلوها ودعوني آتِه. فقالوا: ائتِه. فأتاه فجعل يُكلِّمه، فقال له نحوًا من قوله لبُديلٍ.

فقال عُروة: أيْ محمَّدُ، أرأيتَ لو استأصلتَ قومَك، هل سمعت بأحدٍ من العرب اجتاح أهله قبلك؟! وإن تكُن الأُخرىٰ، فوالله، إنِّي لأرىٰ أوشابًا -الأوشاب: الأخلاط من الناس- من النَّاس خَليقًا أن يفرُّوا ويدعوك.

فقال أبو بكرٍ: امْصُص بَظْرَ اللَّات! أنحن نفرُّ عنه وندعه؟!

قال عروة: مَن ذا يا محمَّد؟ قال: أبو بكر. قال: أما والَّذي نفسي بيده، لولا يَدٌ كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتُك.

وجعل يُكلِّم النَّبيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ويَرْمُق أصحابه، فوالله، ما تَنَخَّم النَّبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ نُخامةً إلَّا وقعت في كفِّ رجلٍ منهم، فدَلَك بها وجهه وجلده، وإذا أمر ابتدروا أمره، وإذا توضَّأ كادوا يقتتلون علىٰ وَضوئه، وإذا تكلَّم خفضوا أصواتهم، وما يُحِدُّون إليه النَّظر تعظيمًا له.

فرجع عروة إلىٰ أصحابه، فقال: أيْ قومِ، والله، لقد وفدت علىٰ الملوك -كسرىٰ، وقيصر، والنَّجاشيِّ- فما رأيتُ مَلكًا يُعظِّمه أصحابه كما يُعظِّم أصحاب محمَّدٍ محمَّدًا. وأخبرهم بجميع ما رأىٰ من حالهم معَه، ثمَّ قال: وقد عرض عليكم خُطَّة رُشدٍ فاقبلوها.

فقال رجلٌ من بني كِنانة: دعوني آتِه. فقالوا: ائته. فلمَّا أشرف علىٰ النَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**هذا فلانٌ، وهو من قوم يُعظِّمون البُدْن، فابعثوها له**». ففعلوا، واستقبله القوم يُلبُّون، فلمَّا رأىٰ ذلك قال: سُبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدُّوا عن البيت! فرجع إلىٰ أصحابه فأخبرهم.

فبينا هم كذلك، إذ جاء سُهيل بن عمرٍو، فقال النَّبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**قد سُهِّل لكم من أمركم**».

فقال: هات اكتب بينَنا وبينَك كتابًا، فدعا الكاتب -وهو عليُّ بن أبي طالبٍ- فقال له رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**اكتب: بسم الله الرَّحمن الرَّحيم**». فقال سُهيلٌ: أمَّا الرَّحمن فما أدري ما هو؟ ولكن اكتب: باسمك اللَّهُمَّ كما كنت تكتبُ. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلَّا بسم الله الرَّحمن الرَّحيم. فقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ:

«**اكتب باسمك اللَّهمَّ**». ثمَّ قال: «**اكتب: هذا ما قاضىٰ عليه محمَّدٌ رسول الله**». فقال سُهيلٌ: والله، لو نعلم أنَّك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولكن اكتب: محمَّد بن عبد الله. فقال: «**إنِّي رسول الله وإن كذَّبتموني، اكتب: محمَّد بن عبد الله**»، ثمَّ قال النَّبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**علىٰ أن تخلُّوا بينَنا وبينَ البيت فنطوف به**».

فقال سُهيلٌ: والله، لا تَحدَّث العربُ أنَّنا أُخذنا ضغطةً، ولكن ذاك من العام المقبل. وقال سهيلٌ: وعلىٰ ألَّا يأتيك رجلٌ منا -وإن كان علىٰ دينك- إلَّا رددتَه إلينا. فقال المسلمون: سُبحان الله! كيف يُردُّ إلىٰ المشركين وقد جاء مُسلمًا؟!

فبينا هم كذلك، إذ جاء أبو جَنْدَل بن سُهيلٍ، وقد خرج من أسفل مكَّة يرسف في قيوده، حتَّىٰ رمىٰ بنفسه بين أظهر المسلمين.

فقال سُهيلٌ: هذا أوَّل ما أُقاضيك عليه أن تردَّه إليَّ. فقال النَّبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنَّا لم نقضِ الكتابَ بعدُ!**» فقال: إذًا والله لا أصالحك علىٰ شيءٍ أبدًا. فقال النَّبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**فأَجِزْه لي**». قال: ما أنا بمُجيزه لك. قال: «**بلىٰ فافعل**». قال: ما أنا بفاعلٍ. قال أبو جندلٍ: يا معشر المسلمين، كيف أُردُّ إلىٰ المشركين

وقد جئتُ مُسلمًا؟! ألا ترون ما لقيتُ؟! وكان قد عُذِّب في الله عذابًا شديدًا.

قال عمر بن الخطَّاب: والله، ما شككتُ منذ أسلمت إلَّا يومَئذٍ. فأتيت النَّبيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقلت: يا رسول الله، ألستَ نبيَّ الله؟ قال: «**بلىٰ**». قلت: ألسنا علىٰ حقٍّ وعدوُّنا علىٰ الباطل؟ قال: «**بلىٰ**». قلتُ: علامَ نُعطي الدَّنيَّة في ديننا، ونرجع ولمَّا يحكم الله بينَنا وبينَ أعدائنا؟ فقال: «**إنِّي رسول الله، وهو ناصري، ولست أعصيه**». قلتُ: أو لست تُحدِّثنا: أنَّا نأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلىٰ، أفأخبرتك أنَّك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنَّك آتيه ومُطوِّفٌ به.

قال: فأتيت أبا بكرٍ. فقلت له مثل الَّذي قلت لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وردَّ عليَّ كما ردَّ عليَّ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سواءً، وزاد: فاستمسك بغَرْزِه حتَّىٰ تموت، فوالله، إنَّه لعلىٰ الحقِّ. فعملت لذلك أعمالًا.

فلمَّا فرغ من قضيَّة الكتاب قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لأصحابه: قوموا فانحروا ثمَّ احلقوا. فما قام منهم رجلٌ حتَّىٰ قالها ثلاثَ مرَّاتٍ.

فقام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يكلِّم أحدًا منهم، حتَّىٰ نَحَر بُدْنه ودعا حالقه، فلمَّا رأَوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتَّىٰ كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا.

ثمَّ جاء نِسوةٌ مؤمناتٌ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠] حتَّىٰ بلغ: ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]. فطلَّق عمر يومَئذٍ امرأتين كانتا له في الشِّرك.

وفي مرجعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنزل الله سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١ - ٢]، فقال عمر: أوَفتحٌ هو يا رسول الله؟ قال: نعم.

وقال الصَّحابة: هذا لك يا رسول الله، فما لنا؟ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] إلىٰ قوله: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥].

ولما رجع إلىٰ المدينة جاءه أبو بَصيرٍ من قريشٍ مُسلمًا، فأرسلوا في طلبه رجلين، وقالوا: العهد الَّذي بيننَا وبينك. فدفعه إلىٰ الرَّجلين.

فخرجا به، حتَّىٰ بلغا ذا الحُلَيْفَة، فنزلوا يأكلون من تمرٍ لهم، فقال أبو بصيرٍ لأحدهما: إنِّي أرىٰ سيفك هذا جيِّدًا. فقال: أجل والله إنَّه لجيِّدٌ، لقد جربت به ثمَّ جرَّبت. فقال: أرني أنظر إليه. فأمكنه منه، فضربه حتَّىٰ برد -أَي: سكن وَبَطلَت حركته-، وفرَّ الآخر حتَّىٰ بلغ المدينة، فدخل المسجد، فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لقد رأىٰ هذا ذُعرًا!**». فلمَّا انتهىٰ إليه قال: قُتل والله صاحبي، وإنِّي لمقتولٌ!

فجاء أبو بصيرٍ، فقال: يا نبيَّ الله، قد أوفىٰ الله ذِمَّتَك، قد رددتني إليهم فأنجاني الله منهم. فقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وَيْلُ أُمِّه مِسْعَر حربٍ** -أَيْ يُسْعِرُهَا، كَأَنَّهُ يَصِفُهُ بِالْإِقْدَامِ فِي الْحَرْبِ وَالتَّسْعِيرِ لنَارِهَا- **لو كان له أحدٌ**».

فلمَّا سمع ذلك عرف أنَّه سيردُّه إليهم، فخرج حتَّىٰ أتىٰ سيف البحر، وتفلَّت منهم أبو جندلٍ، فلحق بأبي بصيرٍ، فلا يخرج من قريشٍ رجلٌ قد أسلم إلَّا لحق به، حتَّىٰ اجتمعت منهم عصابةٌ.

فوالله، ما يسمعون بعِيرٍ لقريشٍ خرجت إلىٰ الشَّام إلَّا اعترضوها، فقاتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريشٌ إلىٰ

النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُناشده اللهَ والرَّحمَ لمَا أرسل إليهم، فمَن أتاه منهم فهو آمنٌ. [الحديث بطوله رواه البخاري (٢٧٣١)].

حوادث السَّنة السَّابعة

كتاب رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلىٰ النَّجاشيِّ يُزوِّجه أمَّ حَبِيبة:

لمَّا كان شهر ربيعٍ سنة سبعٍ من الهجرة، كتب رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كتابًا إلىٰ النَّجاشيِّ يدعوه إلىٰ الإسلام، وكتب إليه: أن يُزوِّجه أمَّ حبيبة بنت أبي سُفيان، وكانت مُهاجرةً معَ زوجها عُبيد الله بن جحشٍ، وقد مات هناك.

وكتب إليه أيضًا: أن يبعث إليه مَن بقي من أصحابه، فلمَّا قرأ الكتاب أسلم، وقال: لو قدرتُ أن آتيه لأتيته، وزوَّجه أمَّ حبيبة، وأصدقها عنه أربعمائة دينارٍ، وحمل بقيَّة أصحابه في سفينتين، فقدموا علىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بخَيْبَر وقد فتحها.

غزوة خَيْبَر:

لمَّا قدم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من الحُديبية، مكث بالمدينة عشرين يومًا أو قريبًا منها، ثمَّ خرج إلىٰ خيبر، واستخلف علىٰ المدينة سِباع بن عُرْفُطَة.

وقدم أبو هريرة حينَئذٍ المدينة مُسلمًا، فوافىٰ سِباعًا في صلاة الصُّبح، فسمعه يقرأ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [سورة المطففين]، فقال -وهو في الصَّلاة-: ويلُ أبي فُلانٍ! له مكيالان، إذا اكتال اكتال بالوافي، وإذا كال كال بالنَّاقص.

وقال سَلمة بن الأَكْوَع: خرجنا إلىٰ خيبر، فقال رجلٌ لعامر ابن الأكوع: ألا تُسمعنا من هُنَيَّاتِك؟ فنزل يَحْدُو ويقول:

اللَّهمَّ لولا أنتَ ما اهتدينا ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا
فأنزلَنْ سكينةً علينا وثبِّت الأقدام إن لاقينا
إنَّا إذا صيح بنا أتينا وبالصِّياح عوَّلوا علينا
وإن أرادوا فتنةً أبينا

فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن هذا السَّائق؟**». قالوا: عامر بن الأكوع. قال: «**رحمه الله!**». فقال رجلٌ من القوم: وَجبَت يا رسول الله، لولا متَّعتنا به!

قال: فأتينا خيبر فحاصرناهم، حتَّىٰ أصابتنا مَخْمَصَةٌ شديدةٌ، فلمَّا تصافُّوا خرج مَرْحَبٌ يخطر بسيفه ويقول:

قد علمت خيبرُ أنِّي مرحبُ شاكي السِّلاح بطلٌ مُجرَّبُ
إذا الحروب أقبلت تلهَّبُ

فنزل إليه عامرٌ وهو يقول:

قــد علمت خيبــرُ أنِّي عامرُ شــاكي السِّلاح بطلٌ مُغامرُ

فاختلفا ضربتين، فوقع سيف مرحبٍ في تُرس عامرٍ فعضَّه، فذهب عامرٌ يسفُل له -وكان سيفه قصيرًا- فرجع إليه سيفه، فأصاب ركبته فمات.

قال سلمة: فقلت للنَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: زعموا أنَّ عامرًا حبط عمله! فقال: «**كذب مَن قال ذلك، إنَّ له أجرين** -وجمع بين إصبعيه-، **إنَّه لجاهدٌ مجاهدٌ، قلَّ عربيٌّ مشىٰ بها مثلَه**». [رواه البخاري (٤١٩٦)، ومسلم (١٨٠٢)].

ولمَّا دنا رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من خيبر قال: «**قفوا**». فوقف الجيش، فقال: «**اللَّهمَّ ربَّ السَّماوات السَّبع وما أظللن، وربَّ الأرَضين السَّبع وما أقللن، وربَّ الشَّياطين وما أضللن، وربَّ الرِّياح وما أَذْرَيْن، فإنَّا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرِّ هذه القرية وشرِّ أهلها وشرِّ ما فيها، أقدموا باسم الله**».

فحاصرهم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قريبًا من عشرين ليلةً، وكانت أرضًا وَخِمَةً شديدة الحرِّ، فجهد المسلمون جَهْدًا

شديدًا، فقام النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيهم، فوعظهم وحضَّهم علىٰ الجهاد.

وكان فيهم عبدٌ أسود، فقال: يا رسول الله، إنِّي رجلٌ أسود اللَّون قبيح الوجه مُنتن الرِّيح لا مال لي، فإن قاتلتُ هؤلاء حتَّىٰ أُقتل أدخل الجنة؟ قال: «**نعم**». فتقدم فقاتل حتَّىٰ قُتل. فقال النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لمَّا رآه: «**لقد حسَّن الله وجهك، وطيَّب ريحك، وكثَّر مالك**». [مستدرك الحاكم (٢٤٦٣)].

فافتتح رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعض حصون خيبر، ثمَّ تحوَّل إلىٰ حصون: الكُتَيْبَة، والوَطِيح، والسَّلالم؛ فإنَّ خيبر كانت جانبين: الأوَّل: الشِّقُّ والنَّطَاة، وهو الَّذي افتُتِح أوَّلًا. والثَّاني: ما ذكرنا.

فحاصرهم حتَّىٰ إذا أيقنوا بالهلكة سألوه الصُّلحَ، ونزل إليه سَلَّامُ بن أبي الحُقَيْق، فصالحهم علىٰ حقن الدِّماء ويخرجون من خيبر، ويُخلون ما كان لهم من مالٍ وأرضٍ. وعلىٰ أنَّ له صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الصَّفراء والبيضاء والحَلْقَة، إلَّا ثوبًا علىٰ ظهر إنسانٍ.

فلمَّا أراد أن يُجليَهم قالوا: نحن أعلم بهذه الأرض منكم، فدعنا نكون فيها. فأعطاهم إيَّاها علىٰ شطر ما يخرج من ثمرها

وزرعها. ثمَّ قسَّمها علىٰ ستَّةٍ وثلاثين سهمًا، كلُّ سهمٍ مائة سهمٍ، فكانت ثلاثة آلافٍ وستَّمائة سهمٍ، نصفها لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وما ينزل به من أمور المسلمين، والنِّصف الآخر قسَّمه بينَ المسلمين.

قدوم جعفر بن أبي طالبٍ وصحبه من الحبشة:

في غزوة خيبر قدم عليه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ابنُ عمِّه جعفر بن أبي طالبٍ وأصحابه، ومعَهم الأشعريُّون: أبو موسىٰ وأصحابه.

قال أبو موسىٰ: بلغنا مَخرَج رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه -أنا وأخوان لي- في بضعٍ وخمسين رجلًا من قومي، فركبنا سفينةً فألقتنا إلىٰ النَّجاشيِّ، فوافقنا جعفرًا وأصحابه عنده، فقال: إنَّ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعثنا وأمرنا بالإقامة، فأقيموا معنا. فأقمنا حتَّىٰ قدمنا فتحَ خيبر.

محاصرة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعض اليهود بوادي القُرَىٰ:

انصرف رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من خيبر إلىٰ وادي القُرَىٰ، وكان به جماعةٌ من اليهود، وانضاف إليهم جماعةٌ من العرب.

فلمَّا نزلوا استقبلتهم يهود بالرَّمي وهم علىٰ غير تعبئةٍ، فقُتِلَ مِدْعَمٌ -عبدٌ لرسول الله ﷺ-، فقال النَّاس: هنيئًا له الجنَّة! فقال رسول الله ﷺ: «**كلَّا، والَّذي نفسي بيده، إنَّ الشَّمْلَة الَّتي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تُصبها القسمة لتشتعل عليه نارًا**». فلمَّا سمع ذلك النَّاس جاء رجلٌ بشِراكٍ أو شِراكين، فقال رسول الله ﷺ: «**شِراكٌ من نارٍ، أو شراكان من نارٍ**». [رواه البخاري (٤٢٣٤)، ومسلم (١١٥)].

فعبَّأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال وصفَّهم، ثمَّ دعاهم إلىٰ الإسلام فأبَوْا، وبرز رجلٌ منهم، فبرز إليه الزُّبير بن العوَّام فقتله، ثمَّ برز آخر، فبرز إليه عليٌّ فقتله، حتَّىٰ قُتل منهم أحدَ عشرَ رجلًا.

فقاتلهم حتَّىٰ أمسَوْا، ثمَّ غدا عليهم، فلم ترتفع الشَّمس قدر رمحٍ حتَّىٰ افتتحها عَنوةً، وأصابوا أثاثًا ومتاعًا كثيرًا، فقسَّمه ﷺ في أصحابه، وترك الأرض والنَّخل بأيدي اليهود، وعاملهم عليها.

ولمَّا رجع إلىٰ المدينة ردَّ المهاجرون إلىٰ الأنصار منائحهم من النَّخيل، قالت عائشة رضي الله عنها: لمَّا فُتحت خيبر قلنا: الآنَ نشبع من التَّمر. [رواه البخاري (٤٢٤٢)].

بَعثُ سريَّةٍ إلىٰ الحُرُقات:

ثمَّ بعث رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سريَّةً إلىٰ الحُرُقات من جُهَيْنَة، فلمَّا دنَوا منهم بعث الأمير الطَّلائع، فلمَّا رجعوا بخبرهم أقبل حتَّىٰ دنا منهم ليلًا وقد هدؤوا، ثمَّ قام فحمد الله وأثنىٰ عليه بما هو أهله، ثمَّ قال: أوصيكم بتقوَىٰ الله وحدَه لا شريك له، وأن تطيعوني ولا تعصوني، ولا تخالفوا أمري، فإنَّه لا رأي لمَن لا يُطاع.

ثمَّ رتَّبهم، فقال: يا فلان أنت وفلان، ويا فلان أنت وفلان، لا يفارق كلٌّ منكم صاحبه، وإيَّاكم أن يرجع أحدٌ منكم فأقول: أين صاحبك؟ فيقول: لا أدري!

فإذا كبَّرتُ فكبِّروا، وجرِّدوا السُّيوف. ثمَّ كبَّروا وحملوا حملةً واحدةً، وأحاطوا بالقوم وأخذتهم سيوف الله.

عُمرة القَضِيَّة:

في ذي القعدة من السَّنة السَّابعة خرج رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مُعتمرًا عُمرة القضيَّة، حتَّىٰ إذا بلغ يَأْجِجَ وضع الأداة كلَّها: المِجانَّ -أي: التروس- والنَّبْل والرِّماح، ودخلوا بسلاح الرَّاكب: **السُّيوف في القُرُب** -قراب السيف: ما يضع الراكب فيه سيفه-.

وأمر رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أصحابه أن يكشفوا عن المناكب ويسعوا في الطَّواف؛ ليرىٰ المشركون قوَّتهم، وكان يُكايدهم بكلِّ ما استطاع، فوقف أهل مكَّة ينظرون إليه وإلىٰ أصحابه وهم يطوفون بالبيت، وعبد الله بن رَواحة آخذٌ بخطام ناقة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَرْتَجِز ويقول:

خلُّـوا بني الكفَّار عن سـبيله
خلُّـوا فكلُّ الخير في رسـوله
قد أنـزل الرَّحمـن في تنزيله
في صُحُفٍ تُتلىٰ علىٰ رسـوله
بـأنَّ خيـر القتل في سـبيله
يـا ربِّ إنِّـي مُؤمـنٌ بقيلـه
إنِّـي رأيـتُ الحـقَّ في قبوله
اليـومَ نضربكم علـىٰ تأويله
كمـا ضربناكم علـىٰ تنزيله
ضربًـا يُزيل الهام عـن مقيله
ويُذهِـل الخليلَ عـن خليله

فأقام بمكَّة ثلاثًا، ثمَّ أتاه سُهيل بن عمرٍو وحُوَيْطِب بن عبد العُزَّىٰ، فصاح حُويطبٌ: نناشدك الله والعقد لما خرجت من أرضنا، فقد مضت الثَّلاث. فأمر رسول الله ﷺ أبا رافعٍ فأذَّن بالرَّحيل.

وبعث جعفر بن أبي طالبٍ إلىٰ ميمونة بنت الحارث يخطبها له، فجعلت أمرها إلىٰ العبَّاس، فزوَّجه إيَّاها.

حوادث السَّنة الثَّامنة

غزوة مُؤْتَة:

سببها: أنَّ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بعث الحارث بن عُميرٍ بكتابٍ إلىٰ ملك الرُّوم -أو بُصْرَىٰ-، فعرض له شُرَحْبِيلُ بن عمرٍو الغسَّانيُّ فقتله، ولم يُقتل لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ رسولٌ غيره، فاشتدَّ ذلك عليه.

فبعث البعوث، واستعمل عليهم زيد بن حارثة، وقال: إن أُصيب زيدٌ فجعفر بن أبي طالبٍ علىٰ النَّاس، وإن أُصيب جعفرٌ فعبد الله بن رواحة، فتجهَّزوا، وهم ثلاثة آلافٍ.

فلمَّا حضر خروجهم، ودَّع النَّاسُ أمراءَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وسلَّموا عليهم، فبكىٰ عبد الله بن رَواحة، فقالوا: ما يُبكيك؟ فقال: أما والله ما بي حبُّ الدُّنيا ولا صبابةٌ بكم -الشوق أو رقته وحرارته-، ولكنِّي سمعتُ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقرأ آيةً من كتاب الله يذكر فيها النَّار: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ

حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]، ولستُ أدري كيف لي بالصُّدور بعدَ الوُرُود؟! فقال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم وردَّكم إلينا صالحين.

فقال ابن رَواحة:

لكنَّني أسأل الرَّحمن مغفرةً
وضربةً ذات فرغٍ تقذف الزَّبدا

أو طعنةً بيدَيْ حَرَّان مُجهِزةً
بحربةٍ تنفذ الأحشاء والكبدا

حتَّىٰ يُقال إذا مرُّوا علىٰ جَدَثِي
يا أرشد الله من غازٍ وقد رشدا!

ثمَّ مضَوا حتَّىٰ نزلوا مَعانَ من أرض الشَّام، فبلغهم أنَّ هرقل بالبَلْقَاء في مائة ألفٍ من الرُّوم، وانضمَّ إليه من لَخْمٍ وجُذامٍ وبَلِيٍّ وغيرِهم مائة ألفٍ، فأقاموا ليلتين ينظرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلىٰ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فنخبره، فإمَّا أن يمدَّنا، وإمَّا أن يأمرنا بأمره.

فشجَّعهم عبد الله بن رَواحة، وقال: والله، إنَّ الَّذي تكرهون للَّذي خرجتم تطلبون، وما نقاتل النَّاس بقوَّةٍ ولا كثرةٍ، وما

نقاتلهم إلَّا بهذا الدِّين الَّذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنَّما هي إحدَىٰ الحُسنيينِ: إمَّا ظَفرٌ، وإمَّا شهادةٌ.

فمضىٰ النَّاس حتَّىٰ إذا كانوا بتُخُوم البلقاء لقيتهم الجموع، فانحاز المسلمون إلىٰ مُؤْتَة، ثمَّ اقتتلوا عندَها، والرَّاية في يد زيدٍ، فلم يزل يُقاتل بها حتَّىٰ شاط في رماح القوم.

فأخذها جعفرٌ فقاتل بها، حتَّىٰ إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه فعقرها، ثمَّ قاتل حتَّىٰ قُطعَت يمينُه، فأخذ الرَّاية بيساره فقُطعَت يسارُه، فاحتضن الرَّاية حتَّىٰ قُتل وله ثلاثٌ وثلاثون سنةً.

ثمَّ أخذها عبد الله بن رَواحة، فتقدَّم بها وهو علىٰ فرسه، فجعل يستنزل نفسه ويقول:

أُقسم بالله لتنزلنَّهْ لتنزلنَّ أو لتُكْرَهِنَّهْ
يا طالما قد كنتِ مُطمئنَّهْ إن أجلب النَّاسُ وشدُّوا الرَّنَّهْ
ما لي أراكِ تكرهين الجنَّهْ؟!

ثمَّ نزل فقاتل حتَّىٰ قُتل

ثمَّ أخذ الرَّاية خالد بن الوليد، فدافع القوم، ثمَّ انحاز وانحِيز عنه، حتَّىٰ انصرف بالنَّاس.

قال ابن عمر: وجدنا ما بين صدر جعفرٍ ومَنكِبه وما أقبل منه تسعين جراحةً.

غزوة الفتح الأعظم:

كانت سنة ثمانٍ في رمضان، وكان في صلح الحُديبية: أنَّ مَن أحبَّ أن يدخل في عَقد رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فعل، ومَن أحبَّ أن يدخل في عَقد قريشٍ فعل.

فدخلت بنو بكرٍ في عقد قريشٍ، ودخلت خُزاعة في عقد رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ثمَّ إنَّ بني بكرٍ وثبوا علىٰ خُزاعة ليلًا بماءٍ يُقال له: الوَتِير، قريبًا من مكَّة، وأعانت قريشٌ بني بكرٍ بالسِّلاح، وقاتل معَهم بعضهم مُستخفيًا ليلًا، حتَّىٰ لجأت خُزاعة إلىٰ الحرم.

فخرج عمرو بن سالمٍ الخُزاعيُّ حتَّىٰ قدم علىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ المدينة، فوقف عليه وهو جالسٌ في المسجد بين ظَهْرَاني أصحابه، فقال:

يـــا ربِّ إنِّي ناشـــدٌ محمَّدا حِلْـــفَ أبينا وأبيـــه الأَتْلَدا
قد كنتـــمُ وُلْدًا وكنَّـــا والدا ثمَّتَ أســـلمْنا ولم ننزعْ يدا

فانصرْ هداك الله نصـــرًا أَيَّدَا وادعُ عبـــاد الله يأتـــوا مددا
فيهم رسول الله قد تجرَّدا

أبيض مثل البدر يسمو صُعُدا إنْ سِيم خســـفًا وجهُه تربَّدا
في فيلقٍ كالبحر يجري مُزْبِدا إنَّ قريشًـــا أخلفوك الموعدا
ونقضـــوا ميثاقـــك المُؤكَّدا وجعلوا لي في كَـــدَاءٍ رُصَّدا
وزعموا أن لستُ أدعو أحدا وهـــم أذلُّ وأقـــلُّ عـــددا
هم بيَّتُونـــا بالوَتِيـــر هُجَّدا وقتلونـــا رُكَّعًـــا وسُـــجَّدا

فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم**»، ثمَّ خرج بُدَيْل بن وَرْقاء في نفرٍ من خُزاعة، حتَّىٰ قدموا علىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ المدينة، فأخبروه بما أُصيب منهم، وبمظاهرة قريشٍ بني بكرٍ عليهم، فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ للنَّاس: «**كأنَّكم بأبي سُفيان قد جاءكم ليشدَّ العقد، ويزيد في المُدَّة، بعثته قريشٌ وقد رهبوا للَّذي صنعوا**».

ثمَّ قدم أبو سفيان، فدخل علىٰ ابنته أمِّ حبيبة، فلمَّا ذهب ليجلس علىٰ فراش رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ طوته عنه، فقال: يا بُنيَّة، ما أدري: أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عنِّي؟

قالت: بل هو فراش رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأنت مشركٌ نجس. فقال: والله لقد أصابك بعدي شرٌّ!

ثمَّ خرج حتَّىٰ أتىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فكلَّمه، فلم يردَّ عليه شيئًا، ثمَّ ذهب إلىٰ أبي بكرٍ فكلَّمه في أن يكلِّم النَّبيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال: ما أنا بفاعلٍ. ثمَّ أتىٰ عمر، فقال: أنا أشفع لكم! والله لو لم أجد إلَّا الذَّرَّ لجاهدتكم به! ثمَّ دخل علىٰ عليٍّ فقال: يا عليُّ، إنَّك أمسُّ القوم بي رحمًا، وإنِّي جئتُ في حاجةٍ فلا أرجعنَّ خائبًا، اشفع لي إلىٰ محمَّدٍ.

فقال: قد عزم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ علىٰ أمرٍ ما نستطيع أن نكلِّمه فيه.

فقال: يا أبا الحسن، إنِّي رأيتُ الأمور قد اشتدَّت عليَّ فانصحني. قال: والله ما أعلم شيئًا يُغني عنك، ولكنَّك سيِّد بني كِنانة، فقُم وأَجِر بينَ النَّاس، ثمَّ الحق بأرضك. فقال: أوترىٰ ذلك مُغنيًا عنِّي شيئًا؟ قال: لا، والله ما أظنُّه، ولكن ما أجد لك غير ذلك.

فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: يا أيُّها النَّاس، إنِّي قد أجرتُ بينَ النَّاس، ثمَّ ركب بعيره وانصرف عائدًا إلىٰ مكَّة.

فلمَّا قدم علىٰ قريشٍ قالوا: ما وراءَك؟ قال: جئتُ محمَّدًا فكلَّمته، فوالله ما ردَّ عليَّ شيئًا، ثمَّ جئت ابن أبي قُحافة، فلم أجد فيه خيرًا، ثمَّ جئت عمر بن الخطاب، فوجدته أدنَىٰ العدوِّ -يعني: أعدَىٰ العدوِّ-، ثمَّ جئت عليًّا فوجدته ألين القوم، وقد أشار عليَّ بكذا وكذا، ففعلت.

قالوا: فهل أجاز ذلك محمَّدٌ؟ قال: لا. قالوا: وَيْلك! والله، إن زاد الرَّجل علىٰ أن لعب بك.وأمر رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ النَّاس بالجهاز، وقال: «**اللَّهمَّ خُذ العيون والأخبار عن قريشٍ، حتَّىٰ نبغتها في بلادها**».

فكتب حاطِب بن أبي بَلْتَعَة إلىٰ قريشٍ كتابًا يُخبرهم فيه بمسير رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ودفعه إلىٰ سارة -مولاةٍ لبني عبد المطَّلب-، فجعلته في رأسها، ثمَّ فَتَلَت عليه قرونها، وأتىٰ الخبرُ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من السَّماء.

فأرسل رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عليًّا والزُّبَير إلىٰ المرأة، فأدركاها برَوْضَة خَاخٍ، فأنكرت، ففتَّشا رحلها، فلم يجدا فيه شيئًا، فهدَّداها، فأخرجته من قرون رأسها.

فأتيا به رسول الله ﷺ، فدعا حاطبًا فقال: «**ما هذا يا حاطب؟**». فقال: لا تعجل عليَّ يا رسول الله، والله إنِّي لمؤمنٌ بالله ورسوله، وما ارتددت ولا بدَّلت، ولكنِّي كنتُ امرءًا مُلصقًا في قريشٍ، لست من أنفسهم، ولي فيهم أهلٌ وعَشيرةٌ وولدٌ، وليس لي فيهم قرابةٌ يحمونهم، وكان مَن معَك لهم قَراباتٌ يحمونهم، فأحببت أن أتَّخذ عندَهم يدًا، وقد علمت أنَّ الله مُظهرٌ رسوله ومُتمٌّ له أمره.

فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنقه؛ فإنَّه قد خان الله ورسوله وقد نافق. فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّه قد شهد بدرًا، وما يدريك يا عمر، لعلَّ الله اطلع علىٰ أهل بدرٍ فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرتُ لكم!**». فذرفت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم. [رواه البخاري (٣٠٠٧) ومسلم (٢٤٩٤)].

ثمَّ مضىٰ رسول الله ﷺ، وعمَّىٰ الله الأخبار عن قريشٍ، لكنَّهم علىٰ وَجَلٍ.

وكان العبَّاس قد خرج قبلَ ذلك بأهله وعياله مُسلمًا مُهاجرًا، فلقي رسول الله ﷺ بالجُحْفَة، فلمَّا نزل ﷺ مَرَّ الظَّهْران أمر الجيش فأوقدوا النِّيران، فأوقدوا أكثر من عشرة آلاف نارٍ.

فركب العبَّاس بغلة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وخرج يلتمس لعلَّه يجد بعض الحطَّابة، أو أحدًا يُخبر قريشًا ليخرجوا يستأمنون رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قبل أن يدخلها عَنوةً.

قال: فوالله، إنِّي لأسير عليها، إذ سمعت كلام أبي سفيان وبُدَيْلٍ يتراجعان، يقول أبو سُفيان: ما رأيت كاللَّيلة نيرانًا قطُّ ولا عسكرًا. قال: يقول بُديلٌ: هذه والله خزاعة حَمَشَتْها الحرب -أي: أحرقتها وهيَّجتها-. قال: يقول أبو سفيان: خزاعة أقلُّ وأذلُّ من أن تكون هذه نيرانها.

فقلت: أبا حنظلة؟ فعرف صوتي، فقال: أبا الفضل؟ قلت: نعم. قال: ما لك؟ فداك أبي وأمي! قال: قلت: هذا رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في النَّاس، واصباح قريشٍ والله. قال: فما الحِيلة؟

قلت: والله، لئن ظفر بك ليضربنَّ عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتَّىٰ آتيه بك فأستأمنه لك. فركب خلفي فجئت به، فكلَّما مررت بنارٍ من نيران المسلمين قالوا: مَن هذا؟ فإذا رأونا قالوا: عمُّ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ علىٰ بغلته. حتَّىٰ مررت بنار عمر، فقال: مَن هذا؟ وقام إليَّ، فلمَّا رأىٰ أبا سفيان قال: عدوَّ الله، الحمد لله الَّذي أمكن منك بغير عقدٍ ولا عهدٍ.

ثمَّ خرج يشتدُّ نحو رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وركضت البغلة فسبقته واقتحمت عنها، فدخلت علىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ودخل عليه عمر فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقدٍ ولا عهدٍ، فدعني أضرب عنقه. فقلت: يا رسول الله، إنِّي قد أجرته.

فلمَّا أكثر عمر قلت: مهلًا يا عمر! فوالله لو كان من بني عَدِيِّ بن كعبٍ ما قلت هذا! قال: مهلًا يا عبَّاس! فوالله لإسلامك كان أحبَّ إليَّ من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلَّا أنِّي عرفت أنَّ إسلامك كان أحبَّ إلىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من إسلام الخطَّاب.

فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**اذهب به يا عبَّاس إلىٰ رحلك، فإذا أصبحت فائتني به**». ففعلت، ثمَّ غدوت به إلىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال: «**وَيْحَك يا أبا سفيان! ألم يَأْنِ أن تعلم: أن لا إله إلَّا الله؟**» قال: بأبي أنت وأمِّي! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله، لقد ظننت أن لو كان معَ الله غيره لقد أغنىٰ عنِّي شيئًا بعدُ. قال: «**ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم: أنِّي رسول الله؟**» قال: بأبي أنت وأمِّي! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أمَّا هذه ففي النَّفس حتَّىٰ الآنَ منها شيءٌ.

فقال له العباس: ويحك! أسلم قبل أن يُضرَب عنقك! قال: فشهد شهادة الحق فأسلم، فقال العبَّاس: إنَّ أبا سفيان رجلٌ يُحبُّ الفخر، فاجعل له شيئًا. قال: «**نعم، مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمنٌ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمنٌ، ومَن دخل المسجد فهو آمنٌ**». [رواه أبو داود (٣٠٢١)].

فلمَّا ذهب لينصرف، قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يا عبَّاس، احبسه بمضيق الوادي عند خَطْم الجبل** -أي: طرفه المائل منه-؛ **حتَّىٰ تمرَّ به جنود الله فيراها**». قال: فخرجت حتَّىٰ حبسته ومرَّت القبائل علىٰ راياتها، حتَّىٰ مرَّ به رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يُرىٰ منهم إلَّا الحَدَق.

فقال: سبحان الله! يا عبَّاس مَن هؤلاء؟ قلت: هذا رسول في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحدٍ بهؤلاء طاقةٌ. وكانت راية الأنصار معَ سعد بن عُبادة، فلمَّا مرَّ بأبي سفيان قال: اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستحلُّ الحُرمة، اليوم أذلَّ الله قريشًا.

فذكره أبو سفيان لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال: «**كذب سعدٌ، ولكن هذا اليوم يومٌ تُعظَّم فيه الكعبة**» [رواه البخاري (٤٢٨٠)]،

«**اليوم أعزَّ الله قريشًا**»، ثمَّ نزع اللِّواء من سعدٍ ودفعه إلىٰ قيسٍ ابنه.

ومضىٰ أبو سفيان، فلمَّا جاء قريشًا صرخ بأعلىٰ صوته: هذا محمَّدٌ قد جاءكم بما لا قِبَلَ لكم به، فمَن دخل دار أبي سفيان فهو آمنٌ. قالوا: قاتلك الله! وما تُغني عنَّا دارك؟! قال: ومَن أغلق عليه بابه فهو آمنٌ، ومَن دخل المسجد فهو آمنٌ.

فتفرَّق النَّاس إلىٰ دورهم وإلىٰ المسجد، وسار رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتَّىٰ دخل مكَّة من أعلاها، وأمر خالد بن الوليد فدخلها من أسفلها، وقال: «**إن عرض لكم أحدٌ من قريشٍ فاحصدوهم حصدًا، حتَّىٰ توافوني علىٰ الصَّفا**»، فما عرض لهم أحدٌ إلَّا أناموه.

قال أبو هريرة: أقبل رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فدخل مكَّة، فبعث الزُّبَير علىٰ إحدىٰ المُجنِّبتينِ، وبعث خالدًا علىٰ المُجنِّبة الأخرىٰ، وبعث أبا عُبيدة بن الجرَّاحِ علىٰ الحُسَّر -أي: الذين لا يلبسون دروعًا-، فأخذوا بطن الوادي، ورسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في كتيبته، وقد وَبَّشَت قريشٌ أوباشها -أي جمعت أخلاط الناس-،

وقالوا: نُقدِّم هؤلاء، فإذا كان لهم شيءٌ كنَّا معَهم، وإن أُصيبوا أعطيناه الَّذي سألنا.

فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يا أبا هريرة**». فقلت: لبَّيك يا رسول الله! قال: «**اهتف لي بالأنصار، ولا يأتيني إلَّا أنصاريٌّ**»، فهتفت بهم فجاؤوا، فأطافوا برسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال: «**أترون إلىٰ أوباش قريشٍ وأتباعهم؟**». ثمَّ قال بيدَيْه إحداهما علىٰ الأُخرىٰ: «**احصدوهم حصدًا، حتَّىٰ توافوني علىٰ الصَّفا**».

قال أبو هريرة: فانطلقنا، فما يشاء أحدٌ منَّا أن يقتل منهم ما شاء إلَّا قتل، وركزت راية رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالحَجُون عندَ مسجد الفتح، ثمَّ نهض والمهاجرون والأنصار بينَ يديْهِ وخلفه وحوله حتَّىٰ دخل المسجد.

فأقبل إلىٰ الحَجَر فاستلمه، ثمَّ طاف بالبيت وفي يده قوسٌ، وحول البيت وعليه ثلاثمائةٍ وستُّون صنمًا، فجعل يطعنها بالقوس ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]، والأصنام تتساقط علىٰ وجوهها. [رواه مسلم (١٧٨٠) بنحوه].

وكان طوافه علىٰ راحلته، ولم يكن مُحْرِمًا يومَئِذٍ، فاقتصر علىٰ الطَّواف، فلمَّا أكمله دعا عثمان بن طَلْحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، فأمر بها ففُتحت، فدخلها، فرأىٰ فيها الصُّور، ورأىٰ صورة إبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام، فقال: «**قاتلهم الله! والله إن استقسما بها قطُّ**». [رواه البخاري (٣٣٥٢)]، وأمر بالصُّور فمُحيت.

ثمَّ أغلق عليه الباب هو وأسامة وبلالٌ، فاستقبل الجدار الَّذي يُقابل الباب، حتَّىٰ إذا كان بينَه وبينَه قدر ثلاثة أذرعٍ وقف وصلَّىٰ هناك، ثمَّ دار في البيت وكبَّر في نواحيه ووحَّد الله، ثمَّ فتح الباب.

وقريشٌ قد ملأت المسجد صفوفًا ينظرون ماذا يصنع بهم؟ فأخذ بعِضَادَتي الباب وهم تحتَه. فقال: «**لا إله إلَّا الله وحدَه لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وأعزَّ جنده، وهزم الأحزاب وحدَه، ألا كلُّ مأثرةٍ أو مالٍ أو دمٍ، فهو تحتَ قدميَّ هاتين، إلَّا سِدانة البيت وسقاية الحاجِّ، ألا وقتل الخطأ شبه العمد بالسَّوط والعصا، ففيه الدِّية مُغلَّظةٌ: مائةٌ من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها.**

يا معشر قريشٍ، إنَّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهليَّة وتعظُّمها بالآباء، النَّاس من آدم، وآدم من تُرابٍ». ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

ثمَّ قال: «**يا معشر قريشٍ، ما ترَون أنِّي فاعلٌ بكم؟**». قالوا: خيرًا، أخٌ كريمٌ، وابن أخٍ كريمٍ. قال: «**فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته:** ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢]، **اذهبوا فأنتم الطُّلقاء**».

ثمَّ جلس في المسجد، فقام إليه عليٌّ -ومفتاح الكعبة في يده- فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحِجابة معَ السِّقاية صلَّىٰ الله عليك. فقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أين عُثمانُ بنُ طَلْحة؟**» فدُعي له، فقال: «**هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم برٍّ ووفاءٍ**».

وأمر بلالًا أن يصعد علىٰ الكعبة فيُؤذِّن، وأبو سُفيان بن حَربٍ، وعتَّاب بن أَسِيدٍ، والحارث بن هشامٍ، وأشراف قريشٍ جلوسٌ بفناء الكعبة، فقال عتَّابٌ: لقد أكرم الله أسيدًا ألَّا يكون سمع هذا! فقال الحارث: أما والله لو أعلم أنَّه محقٌّ لاتَّبعته.

فقال أبو سفيان: لا أقول شيئًا، لو تكلَّمتُ لأخبَرَتْ عنِّي هذه الحصباء.

فخرج عليهم النَّبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال: «**قد علمتُ الَّذي قلتم**». ثمَّ ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعتَّابٌ: نشهد أنَّك رسول الله، والله ما اطَّلع علىٰ هذا أحدٌ كان معنا فنقول: أخبرك.

ثمَّ دخل صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ دار أمِّ هانئٍ فاغتسل وصلَّىٰ ثمان ركعاتٍ، صلاة الفتح، وكان أمراء الإسلام إذا فتحوا بلدًا صلَّوْا هذه الصَّلاة.

ولمَّا استقرَّ الفتح أمَّن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ النَّاس كلَّهم، إلَّا تسعة نفرٍ، فإنَّه أمر بقتلهم وإن وُجِدوا تحتَ أستار الكعبة: عبد الله بن أبي سَرْحٍ، وعِكْرِمة بن أبي جهلٍ، وعبد العُزَّىٰ بن خَطَلٍ، والحارث بن نُفيلٍ، ومَقِيس بن صُبَابة، وهبَّار بن الأسود، وقَيْنَتين لابن خَطَلٍ -أمتَين كانتا تُغنيان بذَمِّ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-، وسارة مولاة لبني عبد المطَّلب.

فأمَّا ابن أبي سرحٍ: فجاء فارًّا إلىٰ عثمان، فاستأمن له رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقبل منه بعدَ أن أمسك عنه رجاء أن يقوم إليه بعض أصحابه فيقتله.

وأمَّا عكرمة: فاستأمنت له امرأته بعدَ أن هرب وعادت به، فأسلم وحسن إسلامه.

وأمَّا ابن خَطلٍ ومقيسٌ والحارث وإحدىٰ القينتين فقُتِلوا.

وأمَّا هبَّارٌ: ففرَّ، ثمَّ جاء فأسلم وحسن إسلامه.

واستُؤمن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لسارة ولإحدىٰ القَيْنَتين، فأسلمتا.

فلمَّا كان الغد من يوم الفتح قام رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في النَّاس خطيبًا، فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثمَّ قال: «**أيُّها النَّاس، إنَّ الله حرَّم مكَّة يوم خلق السَّماوات والأرض، فلا يحلُّ لامرئٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، أو يعضد بها شجرةً، فإن أحدٌ ترخَّص بقتال رسول الله** صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، **فقولوا له: إنَّ الله أذن لرسوله ولم يأذن لك، وإنَّما أُحلَّت لي ساعةً من نهارٍ**».

[رواه البخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٤)].

ثمَّ أمر رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عتَّاب بن أسيدٍ الخزاعيَّ، فجدَّد أنصاب الحَرَم -أي: حدوده التي تفصل بين الحل والحَرم-.

وبعث صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سراياه إلىٰ الأوثان الَّتي حولَ مكَّة فكسِّرت كلُّها، ونادىٰ مُناديه بمكَّة: مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يدع في بيته صنمًا إلَّا كسره.

غزوة حُنَيْنٍ:

لمَّا سمعت هَوَازِن بالفتح، جمعها مالكُ بن عَوفٍ النَّصْرِيُّ، واجتمعَ إليه معَ هوازِنَ ثقيفٌ كلُّها، ولمَّا أجمع مالكٌ السَّير إلىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ساق معَ النَّاس أموالهم، ونساءهم، وذراريَّهم -أي: نسلهم-.

فلمَّا نزل بأَوْطَاسٍ اجتمعوا إليه، وفيهم دُرَيْدُ بن الصِّمَّة -وهو شيخ كبيرٌ، ليس فيه إلَّا رأيه- فقال: بأيِّ وادٍ أنتم؟ قالوا: بأوطاس. قال: نِعم مجال الخيل، لا حَزْنٌ ضَرِسٌ -أي: ليس بغليظ مرتفع خشن-، ولا سهلٌ دَهِسٌ -أي: ليس سهلًا يثقل المشي فيه-! ما لي أسمع رُغاء البعير، ونِهاق الحمير، وبُكاء الصَّغير، ويُعار الشَّاء -هُوَ صَوت الْمعز من الْغنم-؟ قالوا: ساق مالكٌ معَ النَّاس أبناءهم، ونساءهم، وأموالهم.

قال: أين مالكٌ؟ فدُعِيَ له، فقال: إنَّك أصبحت رئيس قومك، وإنَّ هذا يومٌ له ما بعدَه من الأيَّام، فلمَ فعلتَ هذا؟ قال: أردت أن أجعل خلف كلِّ رجلٍ أهله وماله ليُقاتل عنهم.

قال: راعي ضَأْنٍ والله! وهل يَردُّ المنهزمَ شيءٌ؟! إنَّها إن كانت لك، لم ينفعك إلَّا رجلٌ بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك، فُضحت في أهلك، ومالك.

ثمَّ قال: ما فعلت كعبٌ وكِلابٌ؟ قالوا: لم يشهدها منهم أحدٌ. قال: غاب الحَدُّ -أي: الشجاعة والحِدَّة- والجَدُّ -أي: الحظ- لو كان يوم علاءٍ ورفعةٍ لم يغيبوا، ولوددت أنَّكم فعلتم ما فعلت كعبٌ وكلابٌ! فمَن شهدها؟

قالوا: عمرو بن عامرٍ، وعوف بن عامرٍ. قال: ذانك الجَذَعَان -أي: الشابَّان الفَتِيَّان- من عامرٍ لا ينفعان ولا يضرَّان، يا مالك، إنَّك لم تصنع بتقديم البَيْضَة -بيضة هوازن- -أَيْ: مجْتَمعهُم ومَوْضِع سُلطانهم- إلىٰ نحور الخيل شيئًا، ارفعهم إلىٰ ممتنع بلادهم وعلياء قومهم، ثمَّ القَ الصُّباة -أي: الذين خرجوا عند دينهم، يقصد المسلمين- علىٰ متون الخيل، فإن كانت لك، لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك، ألفاك ذاك وقد أحرزتَ أهلَك ومالَك.

قال: والله لا أفعل، إنَّك قد كبرتَ وكبر عقلك، والله، لتطيعنَّني يا معشر هوازن، أو لأتكئنَّ علىٰ هذا السَّيف حتَّىٰ يخرج من ظهري، وكره أن يكون لدُريدٍ فيها ذِكرٌ أو رأيٌ.

قالوا: أطعناك. فقال دريدٌ: هذا يومٌ لم أشهده ولم يفُتني.

ثمَّ قال مالكٌ: إذا رأيتموهم فاكسروا جُفون سيوفكم، ثمَّ شدُّوا شدَّة رجلٍ واحدٍ.ثمَّ بعث عيونًا من رجاله، فأتوه وقد تفرَّقت أوصالهم من الرُّعب والهَلَع.

فقال لهم: ويلكم! ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالًا بيضًا علىٰ خيلٍ بُلْقٍ -جمع أبلق، وهو ما فيه سواد وبياض-، والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترىٰ! فما ردَّه ذلك عن وجهه.

ولمَّا سمع بهم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، بعث إليهم عبد الله ابن أبي حَدْرَدٍ الأسلميَّ، وأمره أن يُداخلهم حتَّىٰ يعلم علمهم، فانطلق فداخلهم حتَّىٰ علم ما هم عليه.

فأتىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فأخبره الخبر، فلمَّا أراد المسير، ذُكر له: أنَّ عند صفوان بن أُميَّة أدراعًا وسلاحًا -وهو يومَئذٍ مُشركٌ-، فقال له: «**يا أبا أُميَّة، أعرنا سلاحك هذا، نلقَ فيه عدوَّنا غدًا**». فقال: أغصبًا يا محمَّد؟ قال: «**بل عاريةٌ مضمونةٌ حتَّىٰ نؤدِّيها إليك**». فأعطاه مائة درعٍ بما يكفيها من السِّلاح.

[رواه أحمد (١٤٨٧٨)، وأبو داود (٣٥٦٢)، بنحوه].

فخرج صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ومعَه ألفان من أهل مكَّة، وعشرة آلافٍ من أصحابه الَّذين فتح الله بهم مكَّة، واستعمل عتَّاب بن أسيدٍ علىٰ مكَّة.

فلمَّا استقبلوا وادي حُنينٍ، انحدروا في وادٍ من أودية تهامة أجوف في عَمَاية الصُّبح -أي: قبل انتشار الضوء-، قال جابر: وكانوا قد سبقونا إليه، فكمنوا في شِعابه ومضايقه قد تهيَّؤوا.

فوالله، ما راعنا إلَّا الكتائب، قد شدُّوا علينا شدَّة رجلٍ واحدٍ، فانهزم النَّاس راجعين لا يلوي أحدٌ علىٰ أحدٍ، وانحاز رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ذاتَ اليمين، ثمَّ قال: «**يا أيُّها النَّاس: هلمُّوا إليَّ، أنا رسول الله، أنا محمَّد بن عبد الله**». [رواه أحمد (١٥٠٢٧)].

وبقي معه نفرٌ من المهاجرين وأهل بيته، فاجتلد النَّاس، فوالله، ما رجعت النَّاس من هزيمتهم حتَّىٰ وجدوا الأَسرَىٰ عندَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وكانوا حينَ رأوا كثرتهم قالوا: لن نغلب اليوم عن قِلَّةٍ، فوقع بهم ما وقع ابتلاءً من الله لقولهم ذلك.

وقال شَيْبَة بن عثمان الحَجَبيُّ: لمَّا كان يوم الفتح، قلتُ: أسير مع قريشٍ إلىٰ هوازن؛ لعلِّي أصيب من محمَّدٍ غِرَّةً -أي:

لحظة غلفة-، فأكون أنا الَّذي قمت بثأر قريشٍ كلِّها، وأقول: لو لم يبقَ من العرب والعجم أحدٌ إلَّا اتَّبعه، ما اتَّبعته أبدًا.

فلما اختلط النَّاس، اقتحم رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن بغلته وأصلت السَّيف، فدنوت أريد ما أريد، ورفعت سيفي حتَّىٰ كدت أُسَوِّرُه -أي: أرتفع إليه وآخذه-، فرُفِع لي شواظٌ من نارٍ كالبرق كاد أن يَمْحَشَني -أي: يحرقني-، فوضعت يدي علىٰ بصري خوفًا عليه، فالتفت إليَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فناداني: «**يا شَيْب، ادنُ**». فدنوت، فمسح صدري، ثم قال: «**اللَّهمَّ أعذه من الشَّيطان**». فوالله، لهو كان ساعتَئذٍ أحبَّ إليَّ من سمعي وبصري ونفسي، ثمَّ قال: «**ادنُ، فقاتل**». فتقدَّمتُ أمامَه أضرب بسيفي، الله يعلم أنِّي أحبُّ أن أقيَه بنفسي، لو لقيت تلك السَّاعة أبي لأوقعت به السَّيف، فجعلت ألزمه فيمن لزمه، حتَّىٰ تراجع النَّاس وكرُّوا كرَّة رجلٍ واحدٍ.

وقُرِّبت بغلة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فاستوىٰ عليها، وخرج رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في أثرهم، حتَّىٰ تفرَّقوا في كلِّ وجهٍ، ورجع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلىٰ معسكره، فدخل خباءه، فدخلت عليه

-ما دخل عليه غيري- حبًّا لرؤية وجهه وسرورًا به، فقال: «**يا شيب، الَّذي أراد الله لك خيرٌ من الَّذي أردتَ لنفسك**».

وقال العبَّاس: إنِّي لمعَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وكنت امرءًا جسيمًا شديد الصوت، فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حينَ رأىٰ ما رأىٰ من النَّاس: «**إليَّ أيُّها النَّاس، أنا النَّبيُّ لا كذب، أنا ابن عبد المطَّلب**». فلم أر النَّاس يلوون علىٰ شيءٍ.

فقال: «**أيْ عبَّاس، اهتف بأصحاب السَّمُرة** -أي: الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرِّضوان بوم الحُدَيبية-». فناديتُ: يا أصحاب السَّمرة، يا أصحاب سورة البقرة. فكان الرَّجل يريد أن يردَّ بعيره فلا يقدر، فيأخذ سلاحه ويقتحم عن بعيره ويخلِّي سبيله ويؤمُّ الصوت، فأتَوا من كلِّ ناحيةٍ: لبَّيك لبَّيك! حتَّىٰ إذا اجتمع إلىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ منهم مائةٌ، استقبلوا النَّاس فاقتتلوا.

فكانت الدَّعوة أوَّلًا: يا لَلأنصار، يا لَلأنصار، ثمَّ خلصت الدَّعوة: يا لَبني الحارث بن الخزرج، وكانوا صُبُرًا عند الحرب.

ثمَّ أخذ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حَصَياتٍ فرمىٰ بها وجوه القوم، ثمَّ قال: انهزَموا وربِّ محمَّدٍ. فما هو إلَّا أن رماهم، فما

زلت أرىٰ حدَّهم كليلًا -أي: ما زلتُ أرىٰ قوتهم ضعيفة-، وأمرهم مُدبرًا. [رواه مسلم (١٧٧٥)].

ولمَّا انهزم المشركون أتَوا الطَّائف ومعَهم مالك بن عوفٍ، وعسكر بعضهم بأوطاسٍ، وبعث رسول الله ﷺ في أثر من توجَّه نحو أوطاسٍ أبا عامرٍ الأشعريَّ، فأدرك بعضهم فناوشوه القتال، فهزمهم الله تعالىٰ، وقُتل أبو عامرٍ، فأخذ الرَّاية أبو موسىٰ الأشعريُّ.

فلمَّا بلغ الخبر رسول الله ﷺ قال: «**اللَّهمَّ اغفر لأبي عامرٍ! واجعله يوم القيامة فوق كثيرٍ من خلقك**». [رواه البخاري (٤٣٢٣)، ومسلم (٢٤٩٨)].

وأمر رسول الله ﷺ بالسَّبي والغنائم أن يُجمع، وكان السَّبي ستَّة آلاف رأسٍ، والإبل: أربعةً وعشرين ألفًا، والغنم أربعين ألف شاةٍ، وأربعة آلاف أُوقيَّة فضَّة.

فاستأنَىٰ بهم رسول الله ﷺ أن يقدموا موالين مسلمين بضعة عشر ليلةً، ثمَّ بدأ بالأموال فقسمها، وأعطىٰ المؤلَّفة قلوبهم أوَّل النَّاس، فأعطىٰ أبا سفيان مائةً من الإبل وأربعين أُوقيَّةً. وأعطىٰ ابنه يزيد مثل ذلك، وأعطىٰ ابنه معاوية مثل

ذلك، وأعطىٰ حكيم بن حِزامٍ مائةً من الإبل، ثمَّ سأله مائةً أُخرىٰ فأعطاه.

قال أبو سعيدٍ الخُدريُّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: لمَّا أعطىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مَن أعطىٰ من تلك العطايا في قريشٍ وقبائل العرب، ولم يكُن في الأنصار منها شيءٌ، وَجدَت الأنصار في أنفسهم، حتَّىٰ كثرت منهم القالة، حتَّىٰ قال قائلهم: لقي والله رسول الله قومه!

فدخل عليه سعد بن عُبادة، فذَكر له ذلك، فقال: «**فأين أنت من ذلك يا سعد؟**» قال: يا رسول الله، ما أنا إلَّا من قومي.

قال: «**فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة**». فلمَّا اجتمعوا أتاه سعدٌ فأخبره.

فأتاهم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فحمد الله وأثنىٰ عليه بما هو أهله، ثمَّ قال: «**يا معشر الأنصار، ما مقالةٌ بلغتني عنكم؟ وَجِدَةٌ وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلَّالًا فهداكم الله بي؟ وعالةً** -أي: فقراء- **فأغناكم الله بي، وأعداءً فألَّف الله بينَ قلوبكم بي؟**». قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ وأفضل.

ثمَّ قال: «**ألا تُجيبوني يا معشر الأنصار؟**». قالوا: بماذا نُجيبك يا رسول الله؟ ولله ولرسوله المَنُّ والفضل.

قال: «أما والله، لو شئتم لقلتم فلصَدَقْتُم ولصُدِّقتم: أتيتنا مُكذَّبًا فصدَّقناك، ومخذُولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فآسيناك -أي: أعطيناك حتىٰ جعلناك كأحدنا-. أوجدتُم عليَّ يا معشر الأنصار في لُعَاعَةٍ -اللُّعاعة: نبت ناعم، يعني: أن الدنيا كالنبات الأخضر قليل البقاء- من الدُّنيا تألَّفت بها قومًا ليُسلموا، ووكلتكم إلىٰ إسلامكم؟!

ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب النَّاسُ بالشاة والبعير، وترجعون أنتم برسول الله إلىٰ رِحالكم؟! فوالَّذي نفس محمَّدٍ بيده، لما تنقلبون به خيرٌ ممَّا ينقلبون به، ولولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك النَّاس شِعبًا -الشِّعب: الطريق بين جبلين- ووديًا، وسلكت الأنصار شِعبًا ووديًا، لسلكت شِعب الأنصار ووديها، الأنصار شِعارٌ والنَّاس دِثارٌ -الشعار: الثوب الذي يلي الجسد، والدثار: الثوب الذي يلي الشعار، فمعناه: الأنصار هم الخاصة والبطانة-، اللَّهمَّ ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

قال: فبكىٰ القوم حتَّىٰ أخضلوا لحاهم -أي: بَلُّوها بدموعهم-، وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًّا. ثمَّ انصرف رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وتفرَّقوا. [رواه أحمد (١١٧٣٠)].

المَنَّ علىٰ سَبْي هوازن:

قدم بعدَ ذلك وفد هوازن علىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهم أربعةَ عشرَ رجلًا، فسألوه: أن يمُنَّ عليهم بالسَّبي والأموال، فقال: «**إنَّ معي مَن ترَون، وإنَّ أحبَّ الحديث إليَّ أصدقه، فأبناؤكم ونساؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم؟**».

فقالوا: ما كنَّا نعدل بالأحساب شيئًا. فقال: «**إذا صلَّيتُ الغداة فقوموا فقولوا: إنَّا نستشفع برسول الله** صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **علىٰ المؤمنين، وبالمؤمنين علىٰ رسول الله، أن يردَّ إلينا سبينا**».

فلمَّا صلَّىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الغداة قاموا فقالوا ذلك، فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أمَّا ما كان لي ولبني عبد المطَّلب فهو لكم، وسأسأل لكم النَّاس**».

فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وقال الأقرع بن حابسٍ: أمَّا أنا وبنو تميمٍ فلا. وقال عُيَيْنة بن حصنٍ: أمَّا أنا وبنو فَزارة فلا. وقال عبَّاسُ بن مِرْداسٍ: أمَّا أنا وبنو سليمٍ فلا. فقالت بنو سليمٍ: ما كان لنا فهو لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

فقال العبَّاس: وهَّنْتُمُوني. فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنَّ هؤلاء القوم قد جاؤوا مسلمين، وقد استأنيت بهم، وقد خيَّرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنِّساء شيئًا، فمَن كان عندَه شيءٌ فطابت نفسه بأن يردَّه فسبيل ذلك، ومَن أحبَّ أن يستمسك بحقِّه فليردَّه عليهم، وله بكلِّ فريضةٍ ستُّ فرائض من أوَّل ما يفيء الله علينا**». [رواه أحمد (٦٧٢٩)، وأبو داود (٢٦٩٤)، والنسائي (٣٦٨٨)].

فقال النَّاس: قد طيَّبنا ذلك لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. فقال: «**إنَّا لا نعرف مَن رضي منكم ممَّن لم يرضَ، فارجعوا حتَّىٰ يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم**». فردُّوا عليهم أبناءهم ونساءهم، وكسا النَّبيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ السَّبي قِبطيَّةً قبطيَّةً -القبطيّة: الثّوب من ثياب مصر رقيقة بيضاء-. [أصله في البخاري (٤٣١٨)].

غزوة الطَّائف:

لمَّا أراد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ المسير إلىٰ الطَّائف -وكانت في شوَّالٍ سنةَ ثمانٍ- بعث الطُّفَيْل بن عمرٍو إلىٰ ذي الكفَّين -صنم عمرو بن حُمَمَة الدَّوسيِّ- ليهدمه، وأمره أن يستمدَّ قومه ويوافيه بالطَّائف، فخرج سريعًا فهدمه، وانحدر معَه من قومه أربعمائةٍ سراعًا.

فوافَوُا النَّبيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالطَّائف بعدَ مقدمه بأربعة أيَّامٍ، وقدم بدبَّابةٍ -آلة تتخذ للحروب، فتدفع في أصل الحصن فينقبونه وهم في جوفها، وقد كانت حينذاك تكسىٰ بالجلود الغليظة- ومَنْجَنِيقٍ -المَنْجَنيق: آلة يُرمَىٰ بها الحجارة، كانت تقوم مقام المدفع اليوم-؛ لأنَّهم لمَّا انهزموا من أوطاسٍ دخلوا حصنهم، وتهيَّؤوا للقتال.

وسار رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فنزل قريبًا من حصن الطَّائف وعسكر هناك، فرمَوُا المسلمين بالنَّبل رميًا شديدًا، حتَّىٰ أُصيب ناسٌ من المسلمين بجراحةٍ، وقُتل منهم اثنا عشر رجلًا.

فارتفع صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلىٰ موضع مسجد الطَّائف اليوم، فحاصرهم ثمانية عشر يومًا، ونصب عليهم المنجنيق، وأمر

بقطع أعناب ثقيفٍ، فوقع النَّاس فيها يقطعون، فسألوه: أن يدعها لله وللرَّحم. فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**فإنِّي أدعُها لله وللرَّحم**».

ونادَىٰ مُناديه: «**أيُّما عبدٍ نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حرٌّ**». فخرج منهم بضعةَ عشرَ رجلًا، فيهم أبو بَكْرَة بن مسروحٍ، فأعتقهم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ولم يُؤذَنْ في فتح الطَّائف، فأمر رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عمر بن الخطَّاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فأذَّن بالرَّحيل، فضجَّ النَّاس من ذلك، وقالوا: نرحل ولم يُفْتَحْ علينا! فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**فاغدوا علىٰ القتال**». فغدَوا فأصابهم جراحاتٌ.

فقال النَّبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنَّا قافلون إن شاء الله**». فسرُّوا بذلك، وجعلوا يرحلون ورسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يضحك، فلمَّا ارتحلوا واستقلُّوا قال: «**قولوا: آيبون، تائبون، عابدون، لربِّنا حامدون**».

[رواه البخاري (٤٣٢٥) ومسلم (١٧٧٨) دون الجملة الأخيرة].

وقيل: يا رسول الله، ادعُ الله علىٰ ثقيفٍ. فقال: «**اللَّهمَّ اهدِ ثقيفًا وائتِ بهم**». [رواه الترمذي (٣٩٤٢) بنحوه]، ثمَّ خرج إلىٰ

الجِعْرَانة، فدخل منها إلىٰ مكَّة مُحرمًا بعُمرةٍ، فقضاها ثمَّ رجع إلىٰ المدينة.

إسلام ثقيفٍ:

قدم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ المدينة من تَبُوكَ في رمضان، وقدم عليه في ذلك الشَّهر وفد ثقيفٍ.

وكان من حديثهم: أنَّ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لمَّا انصرف عنهم، اتِّبع أثرَه عُروة بن مسعودٍ، حتَّىٰ أدركه قبل أن يدخل المدينة فأسلم، وسأله أن يرجع إلىٰ قومه بالإسلام، فقال له رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنَّ فيهم نخوة الامتناع**». فقال: يا رسول الله، أنا أحبُّ إليهم من أبكارهم، وكان فيهم كذلك مُحبَّبًا مُطاعًا.

فخرج يدعوهم إلىٰ الإسلام رجاء ألَّا يُخالفوه لمنزلته فيهم، فلمَّا أشرف لهم علىٰ عِلِّيَّةٍ وقد دعاهم إلىٰ الإسلام، رمَوه بالنَّبل من كلِّ وجهٍ، فأصابه سهمٌ فقتله.

فقيل له وهو يُنازِع: ما ترىٰ في دمك؟ فقال: كرامةٌ أكرمني الله بها، وشهادةٌ ساقها الله إليَّ، فليس فيَّ إلَّا ما في الشُّهداء الَّذين

قُتلوا في سبيل الله معَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قبل أن يرتحل عنكم، فادفنوني معَهم. فدفنوه معهم.

فزعموا أنَّ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**إنَّ مَثلَه في قومه كمثلَ صاحب ياسين في قومه**».

ثمَّ أقامت ثقيفٌ بعدَ قتل عُروة شهرًا، ثمَّ ائتمروا بينَهم، ورأَوا أنَّهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد أسلموا وبايعوا، فأجمعوا أن يرسلوا إلىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رجلًا.

فكلمَّوا عبد يَاليلَ بن عمرو، وعرضوا عليه ذلك، فأبىٰ وخشي أن يُصْنَعَ به كما صُنع بعُروة، فقال: لست فاعلًا حتَّىٰ تُرسلوا معي رجالًا.

فأجمعوا أن يرسلوا معَه رجلين من الأحلاف وثلاثةً من بني مالكٍ، منهم عثمان بن أبي العاص، فلمَّا دنَوا من المدينة ونزلوا قناةً -أي: واديً بالمدينة-، ألفَوْا -أي: وجدوا- بها المُغيرة بن شُعبة، فاشتدَّ ليُبشِّر رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بقدومهم، فلقيه أبو بكرٍ، فقال: أقسمت عليك بالله لا تسبقني إلىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، حتَّىٰ أكون أنا أحدِّثه. ففعل.

ثمَّ خرج المُغيرة إلىٰ أصحابه، فرَوَّحَ الظَّهرَ -أي: بيَّتَ الإبل- معَهم، وعلَّمهم كيف يُحيُّون رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فلم يفعلوا إلَّا بتحيَّة الجاهليَّة، فضرب عليهم قُبَّةً في ناحية المسجد.

وكان فيما سألوه: أن يدع لهم اللَّات لا يهدمها ثلاث سنواتٍ، فأبىٰ، فما برحوا يسألونه سنةً فيأبىٰ، حتَّىٰ سألوه شهرًا واحدًا فأبىٰ عليهم أن يدعها شيئًا مُسمًّىٰ، وإنَّما يريدون بذلك أن يَسْلَمُوا بتركها من سُفَهائهم ونسائهم، ويكرهون أن يروِّعوهم بهدمها حتَّىٰ يدخلهم الإسلام، فأبىٰ إلَّا أن يبعث أبا سفيان بن حربٍ والمغيرة بن شعبة يهدمانها.

فلمَّا أسلموا أمَّر عليهم عُثمان بن أبي العاص -وكان من أحدثهم سنًّا- وذلك: أنَّه كان من أحرصهم علىٰ التَّفقُّه في الدِّين، وتعلُّم القُرآن.

فلمَّا توجَّهوا راجعين بعث معَهم أبا سفيان والمغيرة بن شعبة، حتَّىٰ إذا قدموا الطَّائف أراد المغيرة أن يُقدِّم أبا سفيان، فأبىٰ وقال: ادخل أنت علىٰ قومك. وأقام أبو سفيان بذي الهدم.

فلمَّا دخل المغيرة علا اللَّات يضربها بالمِعْوَل، وقام دونَه بنو مُغيثٍ خشية أن يُرمىٰ كما فُعل بعُروة، وخرج نساء ثقيفٍ حُسَّرًا يبكين عليها، فلما هدمها أخذ مالها وحُليَّها وأرسل به إلىٰ أبي سفيان.

حوادث السَّنة التَّاسعة

لمَّا قدِم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ المدينة ودخلت سنة تسعٍ، بعث المصدِّقين يأخذون الصَّدقات من الأعراب.

إسلام عديِّ بن حاتمٍ الطَّائيِّ:

بعث رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عليًّا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إلىٰ صنم طيِّءٍ ليهدمه، فشنُّوا الغارة علىٰ محلَّة آل حاتمٍ معَ الفجر، فهدموه وملؤوا أيديهم من السَّبي والنَّعَم والشَّاء، وفي السَّبي سفَّانة أخت عديِّ بن حاتمٍ.

وهرب عديٌّ إلىٰ الشَّام، ووجدوا في خزانته ثلاثة أسيافٍ وثلاثة أدرعٍ، وقسَّم عليٌّ الغنائم في الطَّريق، ولم يقسم السَّبي من آل حاتمٍ حتَّىٰ قدم بهم المدينة.

قال عديٌّ بن حاتمٍ: ما كان رجلٌ من العرب أشدَّ كراهةً لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ منِّي حينَ سمعتُ به، وكنت رجلًا شريفًا نصرانيًّا، وكنت أسير في قومي بالمِرْبَاع -أي: آخذ الرُّبع من الْغَنَائِم، لأنَّي سيِّدُهم-، وكنت في نفسي علىٰ دِينٍ.

فقلت لغلامٍ لي راعٍ لإبلي: اعدد لي من إبلي أجمالًا ذُلُلًا سِمانًا، فإذا سمعتَ بجيش محمَّدٍ قد وطئ هذه البلاد فآذنِّي، فأتاني ذات غداةٍ فقال: ما كنتَ صانعًا إذا غشيتك خيل محمَّدٍ فاصنع الآنَ، فإنِّي قد رأيتُ راياتٍ فسألت عنها، فقالوا: هذه جيوش محمَّدٍ.

قلت: قرِّب لي أجمالي، فاحتملت بأهلي وولدي، ثمَّ قلت: ألحق بأهل دِيني من النَّصارىٰ بالشَّام، وخلَّفت بنتًا لحاتمٍ في الحاضرة، فلمَّا قدمت الشَّام أقمت بها، وتخالفني خيل رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فتُصيب ابنة حاتمٍ، فقُدِم بها علىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في سبايا من طيِّءٍ.

وقد بلغ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هربي إلىٰ الشَّام، فمرَّ بها فقالت: يا رسول الله، غاب الوافد، وانقطع الوالد، وأنا عجوزٌ كبيرةٌ ما بي من خدمةٍ، فمُنَّ عليَّ مَنَّ الله عليك!

فقال: «**مَن وافدك؟**» قالت: عديُّ بن حاتمٍ، قال: «**الَّذي فرَّ من الله ورسوله؟**». وكرَّرت عليه القول ثلاثة أيَّامٍ، قالت: فمَنَّ عليَّ، وسألته الحُمْلان، فأمر لها به، وكساها وحملها وأعطاها نفقةً.

قال عديٌّ: فأتتني فقالت: لقد فعل فعلةً ما كان أبوك يفعلها، ائته راغبًا أو راهبًا، فقد أتاه فلانٌ فأصاب منه، وأتاه فلانٌ فأصاب منه. قال: فأتيته وهو جالسٌ في المسجد. فقال القوم: هذا عديُّ ابن حاتمٍ -وجئت بغير أمانٍ ولا كتاب-. فأخذ بيدي، وكان قبل ذلك قال: «**إنِّي لأرجو أن يجعل الله يدَه في يدي**».

فقام إليَّ، فلقيتُ امرأةً ومعَها صبيٌّ، فقالا: إنَّ لنا إليك حاجةً، فقام معَهما حتَّىٰ قضىٰ حاجتهما، ثمَّ أخذ بيدي حتَّىٰ أتىٰ داره، فألقت له الوليدة وسادةً فجلس عليها، وجلست بينَ يديْهِ.

فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثمَّ قال: «**ما يُفِرُّك؟ أيُفرُّك أن يُقال: لا إله إلَّا الله؟! فهل تعلم من إلهٍ سوىٰ الله؟**» فقلت: لا.

فتكلَّم ساعةً ثمَّ قال: «**أيُفرُّك أن يُقال: الله أكبر؟ وهل تعلم شيئًا أكبر من الله؟**» قلت: لا. قال: «**فإنَّ اليهود مغضوبٌ عليهم، والنَّصارىٰ ضالُّون**». فقلت: فإنِّي حنيفٌ مسلمٌ. فرأيتُ وجهه ينبسط فرحًا.

ثمَّ أمر بي فأُنْزِلْتُ عندَ رجلٍ من الأنصار، وجعلت آتيه طرفيِ النَّهار. [رواه أحمد (١٩٣٨١)، والترمذي (٢٩٥٣)].

وفاة النَّجاشيِّ:

لمَّا مات النَّجاشيُّ خرج رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فصلَّىٰ عليه كما يُصلِّي علىٰ الجنائز، فقال المنافقون: يُصلِّي علىٰ عِلْجٍ مات بأرض الحبشة! فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩] الآية.

غزوة تَبُوك:

كانت في زمان عُسرةٍ من النَّاس وجدبٍ من البلاد حينَ طابت الثِّمار، فالنَّاس يُحبُّون المقام في ثمارهم وظلالهم، وكان صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قلَّما يخرج في غزوةٍ إلَّا ورَّىٰ بغيرها -أي: أظهر خلاف ما يريده، كأن يريد أن يغزو وجهة الشرق، فيسأل عن أمر في جهة الغرب-، إلَّا ما كان منها، فإنَّه جلَّاها -أي: أظهرها- للنَّاس؛ لبُعد الشُّقَّة، وشدَّة الزَّمان.

فقال ذات يومٍ -وهو في جهازه- للجَدِّ بن قيسٍ: «**هل لك في جلاد بني الأصفر؟**». فقال: يا رسول الله، ائذن لي ولا تفتني؛ فقد عرف قومي أنَّه ما من رجلٍ أشدَّ عجبًا بالنِّساء منِّي،

وإنِّي أخشىٰ إن رأيت نساء بني الأصفر ألَّا أصبر. فقال: «**قد أذنتُ لك**». ففيه نزلت: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ [التوبة: ٤٩] الآية.

وقال قومٌ من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحرِّ. فنزل: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ [التوبة: ٨١] الآية.

ثمَّ إنَّ رسول الله ﷺ حضَّ أهل الغنىٰ علىٰ النَّفقة، فحمل رجالٌ من أهل الغنىٰ واحتسبوا، وأنفق عثمان ثلاثمائة بعيرٍ بأَحْلاسِها وأَقْتَابِها وعدَّتها، وألف دينارٍ عَيْنًا.

وجاء البكَّاؤون -وهم سبعةٌ- يستحملون رسول الله ﷺ، فقال: «**لا أجد ما أحملكم عليه**». فتولَّوا وأعينهم تفيض من الدَّمع حزنًا ألَّا يجدوا ما ينفقون.

وقام عُلْبَة بن زيدٍ فصلَّىٰ من اللَّيل وبكَىٰ، ثمَّ قال: اللَّهمَّ إنَّك أمرت بالجهاد ورغَّبت فيه، ثمَّ لم تجعل عندي ما أتقوَّىٰ به معَ رسولك، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه، وإنِّي أتصدَّق علىٰ كلِّ مسلمٍ بكلِّ مظلمةٍ أصابني فيها: من مالٍ، أو

جسدٍ أو عِرضٍ. ثمَّ أصبح معَ النَّاس، فقال النَّبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أين المُتصدِّق هذه اللَّيلة؟**». فلم يقم أحدٌ، ثمَّ قال: «**أين المُتصدِّق؟**». فلم يقم، فقام إليه فأخبره، فقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أبشر، فوالَّذي نفس محمَّدٍ بيده، لقد كُتبت في الزَّكاة المُتقبَّلة**».

وجاء المُعذِّرون من الأعراب ليُؤذن لهم، فلم يعذرهم.

واستخلف علىٰ المدينة محمَّد بن مَسْلَمَة الأنصاريَّ، فلمَّا سار رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، تخلَّف عبد الله بن أُبيٍّ ومَن كان معَه، وتخلَّف نفرٌ من المسلمين من غير شكٍّ ولا ارتيابٍ، منهم: الثَّلاثة -كعب بن مالكٍ، وهلال بن أُميَّة، ومُرَارَة بن الرَّبيع-، وأبو خَيْثَمَة السَّالميُّ، وأبو ذرٍّ، ثمَّ لحقاه.

وشهدها رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في ثلاثين ألفًا من النَّاس، والخيل عشرة آلاف فرسٍ، وأقام بها عشرين ليلةً يقصر الصَّلاة، وهرقل يومَئذٍ بحِمْص.

ولمَّا خرج رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خلَّف عليًّا علىٰ أهله، فقال المنافقون: ما خلَّفه إلَّا استثقالًا له وتخفُّفًا منه، فأخذ سلاحه ولحق به، فقال: يا نبيَّ الله، زعم المنافقون أنَّك ما

خلَّفتني إلَّا استثقالًا. فقال: «**كذبوا، ولكنِّي خلَّفتُك لما تركتُ ورائي، فارجع فاخلُفني في أهلي وأهلك، أولا ترضىٰ أن تكون منِّي بمنزلة هارون من موسىٰ، إلَّا أنَّه لا نبيَّ بعدي؟**» فرجع. [أصله في صحيح مسلم (٢٤٠٤)].

ودخل أبو خيثمة إلىٰ أهله في يومٍ حارٍّ بعدَما سار رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أيَّاما، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطٍ، قد رشت كلُّ واحدةٍ منهما عريشها وبرَّدت له ماء وهيَّأت له طعامًا، فلمَّا دخل قام علىٰ باب العريش، فنظر إلىٰ امرأتيه وما صنعتا، فقال: رسول الله في الضِّحِّ -أي: الشمس وضوئها- والرِّيح والحرِّ، وأبو خيثمة في ظلٍّ باردٍ وطعامٍ مُهيَّأٍ وامرأةٍ حسناء! ما هذا بالنَّصَف -أي: الإنصاف والعدل-!

ثمَّ قال: والله، لا أدخل عريش واحدةٍ منكما حتَّىٰ ألحق برسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فهيِّئا لي زادًا، ففعلتا، ثمَّ قدَّم ناضِحَه فارتحله، ثمَّ خرج حتَّىٰ أدرك رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حين نزل تبوك.

وقد كان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لمَّا مرَّ بالحِجْر من ديار ثمود قال: «**لا تدخلوا علىٰ هؤلاء القوم المُعذَّبين إلَّا أن تكونوا**

باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، لا يُصيبكم مثلُ ما أصابهم». [رواه البخاري (٤٣٣)، ومسلم (٢٩٨٠)]. وقال: «**لا تشربوا من مائها شيئًا، ولا تتوضؤوا منه للصَّلاة، وما كان من عجينٍ عجنتموه فاعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئًا**»، وأمرهم أن يُريقوا ماءها، وأن يستقوا من البئر الَّتي كانت تردها النَّاقة. [رواه البخاري (٣٣٧٩)، ومسلم (٢٩٨١) بنحوه].

وقال أبو حُميدٍ السَّاعديُّ: انطلقنا حتَّىٰ قدمنا تبوك، فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ستهبُّ عليكم اللَّيلةَ ريحٌ شديدةٌ، فلا يقم أحدٌ منكم، فمَن كان له بعيرٌ فليشدَّ عِقاله**». فهبَّت ريحٌ شديدةٌ، فقام رجلٌ فحملته الرِّيح حتَّىٰ ألقته بجبَلَي طيِّءٍ. [رواه البخاري (١٤٨١)، ومسلم (١٣٩٢)].

وأصبح النَّاس ولا ماء معَهم، فشكَوا ذلك إلىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فدعا الله، فأرسل الله سحابةً، فأمطرت حتَّىٰ ارتوىٰ النَّاس، واحتملوا حاجتهم من الماء.

ثمَّ سار حتَّىٰ إذا كان ببعض الطَّريق جعلوا يقولون: تخلَّف فلانٌ. فيقول: «**دعوه، فإن يكُ فيه خيرٌ فسيُلحقه الله بكم، وإن يكُ غير ذلك فقد أراحكم الله منه**».

وتَلَوَّم علىٰ أبي ذرٍّ بعيره، فلمَّا أبطأ عليه أخذ متاعه علىٰ ظهره، ثمَّ خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشيًا، ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله، فنظر ناظرٌ من المسلمين، فقال: يا رسول الله، إنَّ هذا الرَّجل يمشي علىٰ الطَّريق. فقال رسول الله ﷺ: «**كُن أبا ذَرٍّ**». فلمَّا تأمَّلوه قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذرٍّ. فقال: «**رحم الله أبا ذرٍّ! يمشي وحدَه، ويموت وحدَه، ويُبعث وحدَه**». [مستدرك الحاكم (٤٣٧٣)].

ولمَّا انتهىٰ رسول الله ﷺ إلىٰ تبوك أتاه صاحب أَيْلَة، فصالحه وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جَرْبَا وأَذْرُح، فأعطَوه الجزية، وكتب لهم كتابًا فهو عندَهم.

ثمَّ بعث خالد بن الوليد إلىٰ أُكَيْدِر دُومَة، وقال لخالدٍ: «**إنَّك تجده يصيد البقر**». فخرج خالدٌ حتَّىٰ إذا كان من حصنه بمنظر العين في ليلةٍ مُقمرةٍ وهو علىٰ سطحٍ له، فباتت البقر تحكُّ بقرونها باب القصر، فقالت له امرأته: هل رأيتَ مثل هذا قطُّ؟ قال: لا والله. قالت: فمَن يترك مثل هذه؟ قال: لا أحد.

ثمَّ نزل، فأمر بفرسه فأُسرِج له، وركب معَه نفرٌ من أهل بيته، فلمَّا خرجوا تلقَّتهم خيل رسول الله ﷺ، فأخذته وقتلوا

أخاه، وقدم به خالدٌ علىٰ رسول الله ﷺ، فحقن دمه وصالحه علىٰ الجزية، ثمَّ خلَّىٰ سبيله فرجع إلىٰ قريته.

فأقام رسول الله ﷺ بتبوك بضعَ عشرةَ ليلةً، ثمَّ انصرف إلىٰ المدينة.

وقال ابن مسعود: قمتُ من جوف اللَّيل وأنا معَ رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فرأيتُ شعلةً من نارٍ في ناحية العسكر، فاتَّبعتها أنظر إليها.

فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكرٍ وعمر، وإذا عبد الله ذو البِجَادَيْن -البِجَاد: الكساء الأسود- المُزَنيُّ قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله ﷺ في حفرته، وأبو بكرٍ وعمر يُدلِّيانه إليه، وهو يقول: «**أدنيا إليَّ أخاكما**». فدلَّياه إليه، فلمَّا هيَّأه لشِقِّه قال: «**اللَّهمَّ إنِّي قد أمسيتُ راضيًا عنه، فارضَ عنه!**» قال عبد الله بن مسعودٍ: يا ليتني كنتُ صاحب الحفرة!

وأقبل رسول الله ﷺ من تبوك حتَّىٰ كان بينَه وبينَ المدينة ساعةٌ، وكان أصحاب مسجد الضِّرار أتَوه وهو يتجهَّز إلىٰ تبوك، فقالوا: يا رسول الله، إنَّا بنينا مسجدًا لذي العِلَّة والحاجة واللَّيلة المطيرة، وإنَّا نُحبُّ أن تُصلِّي فيه.

فقال: «**إنِّي علىٰ جناح سفرٍ، ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم**». فلمَّا نزل بذي أوانٍ جاءه خبر المسجد من السَّماء، فدعا مالك بن الدُّخْشُم ومَعْن بن عديٍّ، فقال: «**انطلقا إلىٰ هذا المسجد الظَّالم أهله فاهدماه، وحرِّقاه**».

فخرجا مُسرعَيْن حتَّىٰ أتيا بني سالم بن عوفٍ -وهم رهط مالك بن الدُّخشم- فقال لمعنٍ: أنظرني حتَّىٰ أخرج إليك بنارٍ من أهلي. فدخل إلىٰ أهله فأخذ سعفًا من النَّخل فأشعل فيه نارًا، ثمَّ خرجا يشتدَّان حتَّىٰ دخلاه وفيه أهله، فحرَّقاه وهدماه، وأنزل الله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧] إلىٰ قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٠].

قال ابن عباس في تفسير هذه الآيات: هم أناسٌ من الأنصار ابتنَوا مسجدًا، فقال لهم أبو عامرٍ الفاسق: ابنُوا مسجدكم، واستعدُّوا ما استطعتم من قوَّةٍ ومن سلاحٍ، فإنِّي ذاهبٌ إلىٰ قيصر ملك الرُّوم، فآتٍ بجُندٍ من الرُّوم، فأُخرِج محمَّدًا وأصحابه. فلمَّا فرغوا من بنائه: أتَوُا النَّبيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقالوا: إنَّا قد فرغنا من بناء مسجدنا، ونحبُّ أن تُصلِّيَ فيه وتدعو بالبركة.

فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٨] إلىٰ قوله: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١١٠] -يعني: الشَّكَّ- ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٠] يعني: بالموت.

ولمَّا دنا رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من المدينة، خرج النَّاس لتلقِّيه، والنِّساء والصِّبيان والولائد يقُلن:

طلع البـــدر علينا من ثَنِيَّات الوداع

وجب الشُّكر علينا مـــا دعـــا لله داع

[ثنيات الوداع: ثنيَّة مُشرِفة علىٰ المدينة -والثنيةُ: هي ما ارتفع من الأرض، أو الطريق في الجبل-، يطؤها من يريد السفر إلىٰ مكة، قيل: سميِّت بذلك لأنها موضع وداع المسافرين من المدينة إلىٰ مكة].

وكانت غزوة تبوك آخر غزوةٍ غزاها رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بنفسه.

وأنزل الله فيها سورة براءة، وكانت تُسمَّىٰ في زمان النَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وبعدَه «المُبعثِرة»؛ لما كشفت من سرائر المنافقين، وخبايا قلوبهم.

وفي غزوة تبوك كانت قصَّة تخلُّف كعب بن مالكٍ، ومُرارة بن الرَّبيع، وهلال بن أُميَّة الواقفيِّ، ممَّن شهدوا بدرًا، ولم يكُن لهم عذرٌ في التَّخلُّف عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

فلمَّا عاد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ المدينة، جاء المُعذِّرون من الأعراب من المنافقين يحلفون أنَّهم كانوا معذورين، فقبل منهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأرجأ كعب بن مالكٍ وصاحبيه حتَّىٰ أنزل الله في شأنهم وفي توبتهم -وكانوا من خيار المؤمنين-: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التوبة: ١١٧-١١٨] الآيتين، خلَّفَهم الله وأخَّر توبتهم؛ ليُمحِّصهم -أي: يُنَقِّيَهم ويُطَهِّرَهم- ويُطهِّرهم من ذنب تأخُّرهم؛ لأنَّهم كانوا من الصَّادقين.

وفود العرب إلى رسول الله ﷺ

عام الوفود:

لمَّا فرغ رسول الله ﷺ من تبوك وأسلمت ثقيفٌ، ضُرِبت إليه أكبادُ الإبل تحمِل وفود العرب من كلِّ وجهٍ، وذلك في سنة تسعٍ، وكانت تسمَّىٰ: عام الوفود.

وقد كانت العرب تربَّص بالإسلام أمر هذا الحيِّ من قريشٍ؛ وذلك أنَّ قريشًا كانوا إمامَ النَّاس وهُداتهم، وأهل البيت والحرم، وصريح ولد إسماعيل عليه السلام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك.

وكانت قريشٌ هي الَّتي نصبت لحرب رسول الله ﷺ، فلمَّا افتُتحت مكَّة، ودانت له قريشٌ، عرفت العرب ألَّا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، فدخلوا في دين الله أفواجًا، كما قال تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [سورة النصر].

وفد بني تَمِيمٍ :

قدم عليه عُطارد بن حاجبٍ التَّميميُّ في أشرافٍ من بني تميمٍ، جاؤوا في أَسرىٰ بني تميمٍ الَّذين أخذتهم سريَّة عُيَيْنَة بن حِصنٍ الفَزارِيِّ في المُحرَّم من هذه السَّنة.

وكان عيينة قد أخذ أحدَ عشرَ رجلًا، وإحدَىٰ وعشرين امرأةً، وثلاثين صبيًّا، وساقهم إلىٰ المدينة.

فقدم رؤساء بني تميمٍ فيهم، فلمَّا دخلوا المسجد، نادَوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات -وهو في بيته-: أن اخرج إلينا. فآذَىٰ ذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٤ - ٥].

فلمَّا خرج إليهم قالوا: جئنا لنفاخرك، فائذن لشاعرنا وخطيبنا. قال: «**أذنت لخطيبكم**». فقام عطاردٌ فخطب. فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيسِ بن شَمَّاسٍ: «**قم فأجب الرَّجل**». فقام ثابتٌ فخطب وأجابه.

وقام الزِّبْرِقَان بن بدرٍ فقال:

نحــن الكــرام فلا حــيٌّ يُعادلنــا
منَّــا الملوك وفينــا تُنصَــب البِيَعُ

وكم قَسَــرْنا مــن الأحيــاء كلِّهم
عنــدَ النِّهاب وفضــل العــزِّ يُتَّبعُ

ونحن يُطعِم عندَ القحــط مُطعِمنا
من الشِّــواء إذا لــم يُؤنَــس القَزَعُ

في أبياتٍ ذكرها.

فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لحسان: «**قم، فأجب الرجل**». فقام فقال:

إنَّ الذَّوائــبَ مــن فِهْــرٍ وإخوتِهم
قــد بيَّنــوا سُــننًا للنَّــاس تُتَّبــعُ

يرضــىٰ بها كلُّ من كانت ســريرته
تقوىٰ الإلــه وكلَّ الخيــر يَصطنعُ

قــومٌ إذا حاربــوا ضــرُّوا عدوَّهمُ
أو حاولوا النَّفع في أشــياعهم نفعوا

ســـجيَّةٌ تلك منهـــم غيـــر مُحدَثةٍ
إنَّ الخلائق -فاعلم- شـــرُّها البِدعُ

إن كان في النَّـــاس ســـبَّاقون بعدَهمُ
فـــكلُّ ســـبقٍ لأدنَـــىٰ ســـبقهم تبعُ

فلمَّا فرغ حسان، قال الأقرع بن حابسٍ: إنَّ هذا الرَّجل لمُؤَتّىٰ له -أي: مُوَفَّق-، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أحلىٰ من أصواتنا.

فلمَّا فرغ القوم أسلموا، وجوَّزهم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فأحسن جوائزهم.

وفد طيِّئ:

قدم علىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وفد طيِّئٍ فيهم زيد الخيل -وهو سيِّدهم-، فعرض عليهم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الإسلام، فأسلموا وحسن إسلامهم.

وقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ما ذُكِرَ لي رجلٌ من العرب بفضلٍ ثمَّ جاءني، إلَّا رأيته دُونَ ما يُقال فيه، إلَّا زيد الخيل، فإنَّه لم يبلغ كلَّ ما كان فيه**».

ثمَّ سمَّاه رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: زيد الخير، وأقطعه فَيْدًا وأرَضين معَه، وكتب له بذلك كتابًا، فخرج من عنده راجعًا إلىٰ قومه، فلمَّا انتهىٰ إلىٰ ماءٍ من مياه نجدٍ أصابته الحُمَّىٰ بها فمات.

فعمدت امرأته إلىٰ ما كان معَه من الكُتُب الَّتي أقطع له بها رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فحرقتها بالنَّار.

وفد عبد القَيْس:

قدم علىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الجارُود العَبْدِيُّ في وفد عبد القيس، وكان نصرانيًّا، فقال: يا رسول الله، إنِّي علىٰ دينٍ، وإنِّي تاركٌ ديني لدينك، فتضمن لي بما فيه؟ قال: «**نعم، أنا ضامنٌ لذلك، إنَّ الَّذي أدعوك إليه خيرٌ من الَّذي كنت عليه**». فأسلم، وأسلم أصحابه.

فكان حسن الإسلام صُلبًا في دينه حتَّىٰ هلك وقد أدرك الرِّدَّة.

وكان في الوفد الأشجُّ، الَّذي قال له رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنَّ فيك لخصلتين يُحبُّهما الله: الحِلم والأناة**». [رواه مسلم (١٧)].

وقد كان رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعث العلاء بن الحضرميِّ قبلَ فتح مكَّة إلىٰ المُنذِر بن ساوَىٰ العبديِّ، فأسلم وحسن إسلامه، ثمَّ مات بعدَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في ردَّةِ أهل البحرين.

وفد بني حَنِيفَة فيهم مُسَيْلِمَة:

قدم علىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وفد بني حنيفة فيهم مُسيلمة الكذَّاب، فأتوه وخلَّفوا مسيلمة في رحالهم.

فلمَّا أسلموا قالوا: يا رسول الله، إنَّا قد خلَّفنا صاحبًا لنا في رحالنا يحفظها لنا. فأَمرَ له بمثل ما أمر به للقوم، وقال: «**أما إنَّه ليس بشرِّكم مكانًا**». يعني: لحفظه ضيعة أصحابه.

ثمَّ انصرفوا، فلمَّا انتهَوا إلىٰ اليمامة ارتدَّ عدوُّ الله وتنبَّأ، وقال: إنِّي أُشرِكت في الأمر معَه. وقال للوفد: ألم يقُل لكم: أما إنَّه ليس بشرِّكم مكانًا؟ ما ذاك إلَّا لما كان يعلم أنِّي أُشركت في الأمر معَه.

ثمَّ جعل يسجع لهم السَّجعات مُضاهاةً للقُرآن، وهو معَ ذلك يشهد لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالنُّبوَّة، وكتب لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: من مُسيلمة رسول الله إلىٰ محمَّدٍ رسول الله،

أمَّا بعدُ؛ فإنِّي أُشرِكت في الأمر معَك، وإنَّ لنا نصف الأرض ولقريشٍ نصفها، ولكنَّ قريشًا قومٌ لا يعدلون.

فكتب إليه رسول الله ﷺ: «**من محمَّدٍ رسول الله إلىٰ مسيلمة الكذَّاب، السَّلام علىٰ من اتَّبع الهُدَىٰ، أمَّا بعدُ؛ فإنَّ الأرض لله يورثها مَن يشاء من عباده، والعاقبة للمتَّقين**».

وقال للرَّجلين اللَّذين أتيا بكتابه: ما تقولان أنتما؟ فقالا: نقول كما قال. فقال: «**أما والله، لولا أنَّ الرُّسل لا تُقتَلُ، لضربتُ رقابكما**». [رواه أحمد (١٥٩٨٩)، وأبو داود (٢٧٦١)]، وذلك في آخر سنة عشرٍ.

حجَّة أبي بكرٍ رضي الله عنه بالنَّاس:

ثمَّ أقام رسول الله ﷺ بعدَ رجوعه من تبوك بقيَّة رمضان وشوالًا وذا القعدة.

ثمَّ بعث أبا بكرٍ رضي الله عنه أميرًا علىٰ الحجِّ؛ ليُقيم للنَّاس حجَّهم، وأهل الشِّرك علىٰ دينِهم ومنازلهم من حجِّهم.

فخرج أبو بكرٍ في ثلاثمائةٍ من المدينة، وبعث معَه رسول الله ﷺ بعشرين بَدَنَةً، قلَّدَها وأَشعَرَها بيده.

ثمَّ نزلت سورة براءةٍ في نقض ما بينَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وبينَ المشركين من العهد الَّذي كانوا عليه، فأرسل بها عليَّ بن أبي طالبٍ علىٰ ناقته العضباء؛ ليقرأ براءة علىٰ النَّاس، وينبذ إلىٰ كلِّ ذي عهدٍ عهده.

فلمَّا لقي أبا بكرٍ قال له: أميرٌ أو مأمورٌ؟ فقال عليٌّ: بل مأمورٌ. فلمَّا كان يوم النَّحر قام عليُّ بن أبي طالبٍ فقال: يا أيُّها النَّاس، لا يدخل الجنَّة كافرٌ، ولا يحجُّ بعدَ العام مشركٌ، ولا يطوف بالبيت عُريانٌ، ومَن كان له عهدٌ عندَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فهو إلىٰ مُدَّته.

حوادث السَّنة العاشرة

حجَّة الوداع:

لمَّا دخل ذو القعدة، تجهَّز رسول الله ﷺ للحجِّ، وأمر النَّاس بالجهاز له، وأمرهم أن يلقوه، فخرج معَه مَن كان حول المدينة وقريبًا منها.

وخرج المسلمون من القبائل القريبة والبعيدة حتَّىٰ لقوه في الطَّريق، وفي مكَّة، وفي مِنًىٰ وعرفاتٍ، وجاء عليٌّ من اليمن معَ أهل اليمن، وهي حجَّة الوداع.

فخرج لها لخمسٍ بقين من ذي القعدة، فمضىٰ رسول الله ﷺ، وساق معَه الهَدْي، فأرىٰ النَّاس مناسكَهم، وعلَّمهم سُنن حجِّهم، وهو ﷺ يقول لهم، ويُكرِّر عليهم: «**أيُّها النَّاس، خذوا عنِّي مناسككم؛ فلعلَّكم لا تلقوني بعدَ عامكم هذا**». [رواه مسلم (١٢٩٧) بنحوه].

ولمَّا كان بمنًىٰ خطب النَّاس خُطبته الَّتي بيَّن فيها ما بيَّنَ، فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثمَّ قال: «**أيُّها النَّاس، اسمعوا قولي؛ فإنِّي**

لا أدري لعلِّي لا ألقاكم بعدَ عامي هذا، أيُّها النَّاس، إنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرامٌ إلىٰ أن تلقَوا ربَّكم، وإنَّ كلَّ رِبًا موضوعٌ، وأوَّل ربًا أضعه: ربا العبَّاس بن عبد المطَّلب، فإنَّه موضوعٌ كلُّه، وإنَّ كلَّ دمٍ في الجاهليَّة موضوعٌ، وأوَّل دمٍ أضعه: دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطَّلب، وإنِّي تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لم تضلوا: كتاب الله، وأنتم مسؤولون عنِّي، فما أنتم قائلون؟». قالوا: نشهد أنَّك قد بلغت وأدَّيت ونصحت، فجعل يرفع إصبعه إلىٰ السَّماء وينكتها إليهم، ويقول: «**اللَّهمَّ اشهد**». ثلاث مرَّاتٍ. [رواه مسلم (١٢١٨)].

فلمَّا انقضىٰ حجُّه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، رجع إلىٰ المدينة، فأقام بقيَّة ذي الحجَّة والمحرَّم وصفرٍ، ثمَّ ابتدأ برسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وجعُه الَّذي مات فيه في آخر صفرٍ.

حوادث السَّنة الحاديةَ عشرةَ

بَعْث أسامة بن زيدٍ إلىٰ البَلْقَاء:

لمَّا كان يوم الاثنين لأربع ليالٍ بقين من صفرٍ، أمر رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ النَّاس بالتَّهيُّؤ لغزو الرُّوم، فلمَّا كان من الغد دعا أسامة بن زيدٍ، وأمره أن يسير إلىٰ موضع مقتل أبيه زيد بن حارثة، وأن يُوطِئ الخيل تُخُوم البلقاء والدَّارُوم من أرض فلسطين.

فتجهَّز النَّاس، وأوعب معَ أسامة المهاجرون والأنصار، ثمَّ استبطأ رسولُ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ النَّاسَ في بعث أسامة، وكان المنافقون قد قالوا في إمارة أسامة: أمَّر غلامًا حَدَثًا علىٰ جِلَّة المهاجرين والأنصار -أي: عظمائهم-!

فغضب رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ غضبًا شديدًا، وخرج عاصبًا رأسه -وكان قد بدأ به الوجع- فصعِد المنبر، فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثمَّ قال: «**أيُّها النَّاس، أنفذوا بعث أسامة، فلئن طعنتم في**

إمارته، فقد طعنتم في إمارة أبيه، وايم الله إن كان لخليقًا للإمارة -أي: جديرًا بها-، **وإنَّ ابنه من بعده لخليقٌ للإمارة، وإن كان أبوه لمن أحبِّ النَّاس إليَّ، وإنَّ هذا لمن أحبِّ النَّاس إليَّ من بعده»**. [رواه البخاري (٣٧٣٠)، ومسلم (٢٤٢٦)]، ثمَّ نزل.

وانكمش النَّاس - أي: أسرعوا- في جهازهم، واشتدَّ برسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وجعه، وخرج أسامة بجيشه، فعسكر بالجُرْف، وتتامَّ إليه النَّاس، فأقاموا لينظروا ما الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ قاضٍ في رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

مرض رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ :

قال أسامة: لمَّا ثَقُل برسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، هبطتُ وهبط النَّاس معي إلىٰ المدينة، فدخلت علىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وقد أُصْمِتَ فلا يتكلَّم، وجعل يرفع يده إلىٰ السَّماء ثمَّ يضعها عليَّ، أعرف أنَّه يدعو لي.

وقال أبو مُوَيْهِبَة -مولىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-: بعثني رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من جوف اللَّيل، فقال: يا أبا مُوَيْهِبَة، قد أُمِرْتُ أن أستغفر لأهل هذا البقيع، فانطلق معي. فانطلقت معَه.

فلمَّا وقف عليهم قال: «**السَّلام عليكم يا أهل المقابر، ليَهْنِ لكم ما أصبحتم فيه ممَّا أصبح النَّاس فيه! أقبلتِ الفِتَنُ مثل قِطَع اللَّيل المظلم، يتبع أُخراها أولاها، الآخرة شرٌّ من الأُولىٰ**».

ثمَّ أقبل عليَّ، فقال: «**إنِّي قد أُعطيت مفاتيح خزائن الدُّنيا والخلد فيها، فخُيِّرت فيها بينَ ذلك وبينَ لقاء ربِّي والجنَّة**». فقلت: بأبي أنت وأمِّي! فخُذْ مفاتيح خزائن الدُّنيا وتُخلَّد فيها، ثمَّ الجنَّة.

قال: «**لا والله يا أبا مُوَيْهِبَة، قد اخترتُ لقاء ربِّي والجنَّة**». ثمَّ استغفر لأهل البقيع، ثمَّ انصرف. [رواه أحمد (١٥٩٩٧)].

فبدأ به وجعه، فلمَّا اشتدَّ به، دعا نساءه فاستأذنهنَّ أن يُمرَّض في بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فأذِنَّ له.

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خطب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**إنَّ الله خيَّر عبدًا بينَ الدُّنيا وبينَ ما عندَه، فاختار ذلك العبد ما عندَ الله**». فبكىٰ أبو بكرٍ، فتعجَّبنا لبكائه: أن يُخبِر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن عبدٍ خُيِّر! فكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو المُخيَّر، وكان أبو بكرٍ أعلَمنا. [رواه البخاري (٣٦٥٤)، ومسلم (٢٣٨٢)].

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ من أَمَنِّ النَّاس عليَّ في صحبته وماله أبو بكرٍ، ولو كنت مُتَّخذًا خليلًا غير ربِّي، لاتَّخذتُ أبا بكرٍ خليلًا، ولكن أخوَّة الإسلام ومودَّته، لا يبقينَّ في المسجد بابٌ إلَّا سُدَّ، إلَّا باب أبي بكرٍ**». [رواه البخاري (٤٦٧)، ومسلم (٢٣٨٢)].

وفي الصَّحيح: أنَّ ابن عبَّاسٍ وأبا بكرٍ مرَّا بمجلسٍ للأنصار وهم يبكون، فقالا: ما يُبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منَّا.

فدخل أبو بكرٍ علىٰ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره بذلك، فخرج -وقد عصب علىٰ رأسه بحاشية بُردٍ- فصعِد المنبر -ولم يصعده بعدَ ذلك اليوم-، فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثمَّ قال: «**أوصيكم بالأنصار خيرًا؛ فإنَّهم كَرِشِي وعَيْبَتِي** - أي: بِطَانَتِي، وَخَاصَّتِي-، **وقد قضَوُا الَّذي عليهم، وبقِيَ الَّذي لهم، فاقبلوا من مُحسنِهم، وتجاوزوا عن مُسيئِهم**». [رواه البخاري (٣٧٩٩)].

وفي الصَّحيح عن أبي موسىٰ الأشعريِّ قال: اشتدَّ مرض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**مُروا أبا بكرٍ فليُصلِّ بالنَّاس**». قالت عائشة: يا رسول الله، إنَّه رجلٌ رقيقٌ، إذا قام مقامك لا يُسمِعُ النَّاس، فلو أمرت عمر؟ قال: «**مُروا أبا بكرٍ فليصلِّ**

بالنَّاس». فعادت، فقال: «**مُروا أبا بكرٍ فليُصلِّ بالنَّاس، فإنَّكنَّ صواحبُ يوسف** -أي: مِثْلُ صَوَاحِبِ يُوسُفَ فِي إِظْهَارِ خِلَافِ مَا فِي الْبَاطِنِ-».

فصلَّىٰ بالنَّاس في حياة النَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قالت عائشة: ووالله، ما أقول إلَّا أنَّي أُحبُّ أن يُصرف ذلك عن أبي بكرٍ، وعرفت أنَّ النَّاس لا يُحبُّون رجلًا قام مقامه أبدًا، وأنَّ النَّاس سيتشاءمون به في كلِّ حدثٍ كان، فكنت أُحبُّ أن يُصرف ذلك عن أبي بكرٍ.

[رواه البخاري (٦٦٤)، ومسلم (٤١٨)].

موت رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ :

لمَّا كان يوم الاثنين الَّذي قُبِضَ فيه رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، خرج إلىٰ النَّاس وهم يُصلُّون الصُّبح، فرفع السِّتر وفتح الباب، فقام صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ علىٰ باب عائشة، فكاد المسلمون يُفتتنون في صلاتهم فرحًا به حينَ رأوه، وتفرَّجوا عنه، فأشار إليهم: أن اثبتوا علىٰ صلاتكم.

وتبسَّم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سرورًا؛ لما رأىٰ من هيئتهم في صلاتهم، وما رُؤِيَ أحسن منه هيئةً تلك السَّاعة، ثمَّ رجع، وانصرف النَّاس، وهم يرون أنَّه قد أفاق من وجعه، وخرج أبو

بكر إلىٰ أهله بالسُّنْح، فتُوفِّي رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حينَ اشتدَّ الضُّحىٰ من ذلك اليوم.

فلمَّا تُوفِّيَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قام عمر فقال: إنَّ رجالًا من المنافقين يزعمون أنَّ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قد تُوفِّيَ، وإنَّ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والله ما مات، ولكنَّه قد ذهب إلىٰ ربِّه كما ذهب موسىٰ بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلةٍ، ثمَّ رجع إليهم بعدَ أن قيل: مات.

ووالله، ليرجعَنَّ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعدَ حينٍ كما رجع موسىٰ، فليُقطِّعنَّ أيدي رجالٍ وأرجلهم زعموا أنَّه قد مات.

وأقبل أبو بكرٍ حتَّىٰ نزل علىٰ باب المسجد حين بلغه الخبر -وعمر يكلِّم النَّاس-، فلم يلتفت إلىٰ شيءٍ حتَّىٰ دخل علىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في بيتِ عائشة، ورسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مُسجَّىٰ في ناحية البيت عليه بُرْدٌ حِبَرَةٌ -نوعٌ من بُرُودِ الْيَمَنِ-، فأقبل حتَّىٰ كشف عن وجهه، ثمَّ أقبل عليه فقبَّله، ثمَّ قال: بأبي أنت وأمِّي! أمَّا الموتة الَّتي كتبها الله عليك فقد ذقتها، ثمَّ لن تصيبك بعدَها موتةٌ أبدًا. ثمَّ ردَّ البُرد علىٰ وجهه.

وخرج وعمر يُكلِّم النَّاس، فقال: علىٰ رِسْلك يا عمر، أنصِتْ. فأبىٰ إلَّا أن يتكلَّم، فلمَّا رآه أبو بكرٍ لا ينصت أقبل علىٰ النَّاس.

فلمَّا سمع النَّاس كلام أبي بكرٍ أقبلوا عليه وتركوا عمر، فحمد الله تعالىٰ وأثنىٰ عليه، ثمَّ قال: أيَّها النَّاس، إنَّه مَن كان يعبد محمَّدًا، فإنَّ محمَّدًا قد مات، ومَن كان يعبد الله تعالىٰ، فإنَّ الله حيٌّ لا يموت. قال: ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قال: فوالله، لكأنَّ النَّاس لم يعلموا أنَّ هذه الآية نزلت حتَّىٰ تلاها أبو بكرٍ يومَئذٍ، قال: وأخذها النَّاس عن أبي بكرٍ، فإنَّما هي في أفواههم.

قال أبو هريرة: فقال عمر: فوالله، ما هو إلَّا أن سمعت أبا بكرٍ تلاها، فعثرت حتَّىٰ وقعتُ إلىٰ الأرض ما تحملني رجلاي، فاحتملني رجلان، وعرفتُ أنَّ رسول الله قد مات.

فهرس المحتويات

مقدمة الرئاسة ٥

نسبُ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٧

قصَّة الفيل ٨

أحوال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٣

من وقت حمله، وحتَّىٰ كفالة جدِّه عبد المطَّلب ١٣

عبد المطَّلب جدُّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٥

عبد الله والد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٢٠

تَحنُّثه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غار حِراء ٢٦

بناء الكعبة ٢٧

بعض ما كان عليه أهل الجاهليَّة ٣١

عمرو بن لُحَيٍّ أوَّل من غيَّر دين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ٣٢

بَدء الوَحْي ٣٦

ابتداء الدَّعوة ٤١

أوَّل دمٍ أُهرِيقَ في الإسلام ٤٣

استِهزاء المشركين ٤٣

السَّنة الخامسة من البَعثة ٤٥
الهجرة الأُولىٰ إلىٰ الحبشة ٤٥
الهجرة الثَّانية إلىٰ الحبشة ٤٦
السَّنة السَّادسة من البَعثة ٤٧
إسلام حمزة بن عبد المطَّلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٤٧
إسلام عُمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٤٨
حماية أبي طالبٍ لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٥٠
حصار بني هاشمٍ في الشِّعب ٥٢
السَّنة العاشرة من البَعثة ٥٤
نَقْض الصَّحيفة ٥٤
موت أبي طالبٍ وخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ٥٧
سؤالهم عن الرُّوح وأهل الكهف ٥٩
انشقاق القمر ٦٠
سؤالهم الآيات ٦٠
خروجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ الطَّائف ٦١
الإسراء والمعراج ٦٤
فصلٌ في الهِجرة ٦٦
بيعة العَقَبة الأُولىٰ ٦٦
إسلام سعد بن مُعاذٍ وأُسَيْد بن حُضَير ٦٨
بيعة العَقَبة الثَّانية ٧١

الهجرة إلىٰ المدينة ٧٦
السَّنة الثَّالثةَ عشرةَ من البَعثة ٧٧
تآمر قريشٍ بدار النَّدوة علىٰ قتل رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ .. ٧٧
قصَّة سُراقَة بن مالكٍ ٨٠
قصَّة أمِّ مَعْبَدٍ ٨٢
دخول رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ المدينة ٨٥
السَّنة الأُولىٰ من الهجرة ٨٨
بناء المسجد ٨٨
بناؤه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعائشة ٨٩
المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ٩٠
حوادث السَّنة الأُولىٰ ٩٢
حوادث السَّنة الثَّانية ٩٤
استِقرار الرَّسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالمدينة ٩٥
أوَّل لواءٍ عقده رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ٩٦
سريَّة عُبيدة بن الحارث ٩٧
سريَّة سعد بن أبي وقَّاصٍ ٩٧
غزوة الأَبْوَاء ٩٧
غزوة بُوَاطٍ ٩٨
خروجُه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لطلب كُرْز بن جابرٍ ٩٨
غزوة العَشيرة ٩٨

بَعْث عبد الله بن جَحشٍ ٩٩
وقعة بَدْرٍ الكُبرىٰ يومُ الفُرقان ١٠١
قسم غنائم بدرٍ ١١١
أُسارَىٰ بدرٍ ١١٣
حوادث السَّنة الثَّالثة من الهجرة. ١١٥
بعثُ قريشٍ إلىٰ النَّجاشيِّ تطلب إرجاع المسلمين..... ١١٥
غزوة بني قَيْنُقَاع ١١٩
غزوة أُحُدٍ ١١٩
حوادث السَّنة الرَّابعة ١٣٠
حوادث السَّنة الخامسة ١٣١
غزوة المُرَيْسِيع ١٣١
قصَّة الإفْك ١٣١
غزوة الأحزاب ١٣٦
غزوة بني قُريظة ١٤٢
حوادث السَّنة السَّادسة ١٤٤
صُلح الحُدَيْبِيَة ١٤٤
حوادث السَّنة السَّابعة ١٥٦
كتاب رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلىٰ النَّجاشيِّ يُزوِّجه أمَّ حَبِيبة ١٥٦
غزوة خَيْبَر ١٥٦

قدوم جعفر بن أبي طالبٍ وصحبه من الحبشة ١٦٠
محاصرة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعض اليهود بوادي القُرَىٰ ... ١٦٠
بَعثُ سريَّةٍ إلىٰ الحُرُقات ١٦٢
عُمرة القَضِيَّة ١٦٢
حوادث السَّنة الثَّامنة ١٦٥
غزوة مُؤْتَة ١٦٥
غزوة الفتح الأعظم ١٦٨
غزوة حُنَيْنٍ ١٨٢
المَنَّ علىٰ سَبْي هوازن ١٩١
غزوة الطَّائف ١٩٣
إسلام ثقيفٍ ١٩٥
حوادث السَّنة التَّاسعة ١٩٩
إسلام عديِّ بن حاتمٍ الطَّائيِّ ١٩٩
وفاة النَّجاشيِّ ٢٠٢
غزوة تَبُوك ٢٠٢
وفود العرب إلىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ٢١٢
عام الوفود ٢١٢
وفد بني تَمِيمٍ ٢١٣
وفد طيِّئ ٢١٥

وفد عبد القَيْس ٢١٦
وفد بني حَنِيفَة فيهم مُسَيْلمَة ٢١٧
حجَّة أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالنَّاس ٢١٨
حوادث السَّنة العاشرة ٢٢٠
حجَّة الوداع ٢٢٠
حوادث السَّنة الحاديةَ عشرةَ ٢٢٢
بَعْث أسامة بن زيدٍ إلىٰ البَلْقَاء ٢٢٢
مرض رسول الله ﷺ ٢٢٣
موت رسول الله ﷺ ٢٢٦
فهرس المحتويات ٢٢٩